سلسلة مراكز الحضارة

فاس في عصر بني مرين

نُشر بالاشتراك مع

مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر

بيروت - نيويورك

١٩٦٧

روجيه لو تورنو

فاس

في عصر بني مرين

ترجمة الدكتور نقولا زيادة

مكتبة لبنان

تصـــــــدير

كانت فاس ، في منتصف القرن الثامن / الرابع عشر ، واحدة من اهم المدن الاسلامية . وفي المغرب نفسه لم يعد لمراكش تلك المكانة التي تمتعت بها من قبل ، ذلك لانها خسرت مكانتها كعاصمة للبلاد قبل نحو قرن . وتلمسان ، التي كان المغاربة قد استولوا عليها بعد حروب طال امدها ، كانت قد ضمت الى امبراطوريتهم سنة ١٣٣٧ . وتونس ظلت عاصمة اسرة مغربية الاصل كانت ذات حول وصولة في القرن السابع / الثالث عشر الا انها نكست أعلامها في القرن الثامن / الرابع عشر . وكانت دمشق وبغداد قد نالها اذى كبير بسبب غزوات التتار في القرن السابع / الثالث عشر ، وكانتا لا تزالان تعالجان جراحها . وكانت المـــدن الاسلامية في اسبانية ، باستثناء غرناطة ، قد آلت الى المسيحية في القرن السابع / الثالث عشر . وعلى كل فقد ظلت غرناطة تتأرجح بين تهديد المسيحيين واطماع المغاربة . وقد كانت رمزاً لاسبانية الاسلامية التي رفضت الموت اكثر منها مدينة اسلامية حقاً تكلأها رعاية دولة عظيمة . والمدينة الوحيدة التي كانت تتفوق على فاس في الاهمية ، في

اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم ، وكان ذلك في اواسط القرن السابع / الثالث عشر . اما وقـــد كانت ايامهم الاولى تشغلها الحروب مع جيرانهم ، الذين كانوا يريدون بدولتهم الناشئة شراً ، ومع مسيحيي اسبانية ، الذين كانوا يشددون الحملات على مسلمي شبه الجزيرة ، فان المرينيين لم يتمكنوا من الانصراف مباشرة الى تطوير مدينتهم المختارة . ومن ثم فقد بلغت العاصمة روعتها تدريجاً ، وذلك بعد ان انتصر المحاربون المرينيون على خصومهم ، وأصبح باستطاعتهم ان يولوا مشاريع السلم عنايتهم .

يضاف الى ذلك ان من خصائص نمو مدينة فاس انه كان نمواً بطيئاً . ولا يختص عصر بني مرين بذلك ، بل انه يمتد عبر ماضيها الطويل . فقد اينعت بعض المدن الاسلامية فجأة ، كما تنمو الازهار في الصحراء بعد المطر الغزير . فبغداد والقاهرة ، وكل منهما بنيت لتكون عاصمة لامبراطورية عظيمة ، لم تلبثا ان لبتا المطلوب منهما ، واصبحتا مدينتين ثريتين . وثمـــة مدن اسلامية اخرى ، مثل دمشق وحلب ومكة المكرمة ، ورثت امجاد ماض بعيد . ولم تدخل فاس في عداد اي من الصنفين . فالذي يبدو ان المسلمين انشأوها في مكان لم يكن من قبل مركزاً مهماً للاستيطان والعمران . وقد أحاقت بها الصعوبات في مطلع شبابها ، وكان نموها عبر الزمن بطيئاً . والسبيل الوحيد لفهم حال فاس ايام بني مرين هو استعراض ماضيها البعيد باقتضاب . وستتضح عندها العناصر البشرية التي كونت المدينة تدريجاً ، وكيف بلغت اوجها في القرن الثامن / الرابع عشر .

١ تأسيس المدينة وتاريخها المبكر

الجزائر . وقد يختلف اتجاهه بين المحيط وفاس ، الا ان اتجاهه بعد هذه المدينة تحدده طبيعة الارض . فالمسافر الى تازا الراغب في تحمل اقل حد من المشاق ، لا بد له من ان يتبع وادي فاس وان يقطع سبو ثم ينتقل الى وادي اناوين الذي يوصله الى ممر تازا ومن ثم الى منبسط من الارض في شرق المغرب . ففاس تقع عند تقاطع هذين الطريقين الرئيسيين . وعلى كل حال فانه حري بالذكر ان الطريق المتجه جنوباً ظل ، الى فترة طويلة ، عطفة او زنقة لان الاتجار مع بلاد السودان لم يتقدم الا بعد ان اصبح من الممكن استعمال الجمال في تنظيم رحلات تجارية عبر الصحراء الكبرى ، وهذا لم يتيسّر قبل القرن الخامس بعد الميلاد . وقد يوضح هذا لنا سبب اهمال الرومان لموقع فاس : فالطريق الجنوبي لم يكن لهم منه فائدة ، ولسنا نعلم تماماً فيما اذا كانت ثمـــة طريق تصل بين ولايتي موريتانية القيصرية (اورانية) وموريتانية الطنجية (شمال المغرب) . وفي ايام السيادة الرومانية لم يكن موقع مدينة فاس يقوم على مفترق طرق بالمعنى الصحيح .

ولموضع فاس ميزة اخرى ذات اهمية خاصة في المغرب وهي ان ماءها غزير . فالماء الذي تمتصه الطبقات الكلسية في الاطلس الأوسط يكون منطقة من المياه الجوفية ، تتفجر منها ، في سهل سايس ، ينابيع كثيرة تتحد لتغذي نهر فاس ، او على الاصح ، انهار فاس ، يضاف الى ذلك الينابيع التي تتفجر من المدوات

الشديدة الانحدار التي حفرها نهر فاس مسيلاً له . وترتب على ذلك انه حتى لو تمكن العدو المحاصر للمدينة من تحويل مجرى النهر موقتاً ، وهو ما حدث في الواقع ، فان سكان المدينة لا تنقطع عنهم المياه ألبتة ، ذلك لانها تتجمع حتى داخل الاسوار. ومن الواجب القول اخيراً ان المدينة بنيت على مقربة من المقالع التي زودتها بمواد البناء ، ولم تكن بعيدة من الاطلس الاوسط وغاباته الغنية بالاخشاب ، وكانت تقوم في وسط منطقة زراعية خصبة .

ومع كل هذه الميزات الهامة فان موضع فاس لم تستوطنه جماعات ذات قيمة قبل القرن الثاني / الثامن . والرواة العرب يؤكدون ان مدينة قديمة كانت قد قامت في الموضع نفسه ، وذلك على الرغم من انه لم توجد آثار او بقايا لها في الفترة التي انشئت فيها المدينة الاسلامية. ولكن لم يعثر الى الآن على ما يؤيد هذه القضية، اذ ليس ثمة اي نص، لاتينياً كان او بأية لغة اخرى، يشير الى ذلك ، ولم تظهر آثار تدل عليه . وحتى لو قبل الرأي القائل بان جماعة بشرية قد استوطنت المكان في العصور القديمة ، فالمرجح هو انه في القرن الثاني / الثامن كان وادي فاس تكسو الاعشاب والحشائش عدواته ، وتملأ الوحوش جنباته ، ويؤمه الملأ من البربر للصيد والقنص .

في اواخر القرن الثاني / الثامن اضطر ادريس بن عبد الله ، أحد احفاد النبي ، الى الهرب من المشرق حيث كانت اسرته

تتعرض للكثير من الاضطهاد على يد الخليفة هارون الرشيد . وقد انتجع ادريس ملجأ له في المغرب الاقصى ، البلاد التي كانت قد حررت نفسها من سلطة الخلافة قبل ذلك بنحو خمسين سنة . وقد تلقته احدى القبائل البربرية على الرحب والسعة ، ورأت ما يتحلى به من صفات الزعامة ، ويسرت له أمر اقامة دولة اسلامية يبدو انها نمت نمواً سريعاً . وهذا النجاح الذي اصابته اغاظ الرشيد لما بلغته اخباره فانتدب احد خاصته ليذهب الى المغرب الاقصى بقصد ان يدس السم لادريس ، وقد نجح الرسول في مهمته . الا ان ادريس ترك زوجه البربرية حاملاً ، فوضعت بعد شهرين من وفاته طفلاً سمي ادريس على اسم ابيه . وقد قام على العناية به وتربيته ، بكثير من الحذر ، البربر الذين نصروا اباه من قبـــل ومولى لادريس الاب كان متفانياً في حبه لآل البيت . وقد نما الطفل ، وبلغ نضجه في وقت مبكر حتى ان الرواية تقول بانه في عام ١٩٣ / ٨٠٨ ، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره ، اصبح باستطاعته ان يتم العمل الذي بدأه ابوه .

ثمة روايتان متناقضتان مرتبطتان بالاحداث المتعلقة بتأسيس فاس . فالرواية الاكثر شيوعاً ، وهي التي دونها المؤلفون المحدثون نسبياً (في القرنين السابع / الثالث عشر والثامن / الرابع عشر) تقول بان المدينة انشئت على العدوة اليمنى لنهر فاس سنة ١٩٣ / ٨٠٨ وهي السنة التي اخذ بها ادريس الاصغر نفسه

بتصريف الامور . وتقول هذه الرواية نفسها ، دون أن تقدم اي تفسير للامر ، بان ادريس عاد فبنى في السنة التالية مدينة ثانية على العدوة اليسرى للنهر ، واتخذها مقراً له .

وقد عجب البحاثة الفرنسي ايلي ليفي - بروفنسال من هذه الرواية الغريبة ، فاخذ نفسه بدرس قضية تأسيس فاس دراسة دقيقة . وقد اهتدى الى رواية ثانية اقل شيوعاً وان كانت اقدم عهداً (القرن الرابع / العاشر) . وبموجب هذه الرواية تكون المدينة الواقعة على العدوة اليمنى هي من بناء ادريس الاكبر الذي اخذ ببنائها قبيل وفاته لكنه لم يتمها . فجاء ابنه بعد ذلك بنحو عشرين سنة ، اي سنة ١٩٤ / ٨٠٩ ، فأسس مدينة على العدوة اليسرى ، بدلاً من استئناف العمل في مبان علتها الاعشاب والنباتات عبر السنين . وهذه الرواية تبـــدو اقرب الروايتين احتمالاً ، خاصة وانه قد اكتشفت فيها بعض نقود سابقة في الزمن لادريس الاصغر .

والذي لا يقبل الشك هو ان مدينة فاس من بناء الادارسة ، وانها اسست في اواخر القرن الثاني / اوائل القرن التاسع ، وانها منذ ذلـــك الحين وهي قسمان يقوم كل منهما على سفح شديد الانحدار من عدوتي الوادي الذي يجري فيه هذا النهر الضيق .

ويبدو ان سكان المدينة الاوائل كانوا مكونين من ثلاثة

عناصر متباينة . عرب جذبتهم مكانة الاسرة الادريسية ، وبربر من اهل المنطقة ، وفئة من غير المسلمين ، من اليهود ولعلّه كان بينهم بعض من المسيحيين . وقد انضم اليهم ، بعد فترة وجيزة ، فئتان اخريان : فئة جاءت من قرطبة سنة ٢٠٣ / ٨١٨ والثانية من القيروان سنة ٢١٠ / ٨٢٥ ، وقد اخرجت كل من بلدها عقب ثورة فاشلة اسهمت فيها . وهكذا فقد ازداد سكان فاس في برهة قصيرة . وكان هؤلاء القادمون ممن أَلِف حياة المدينة الاسلامية . وقد كان بعضهم ، على الاقل ، ممن له مشاركة بشؤون الفكر او ممن له حذق بامور الصناعة وفنونها . ولعلّ اتخاذ فاس خصائص المدينة الاسلامية بسرعة فائقة يرجع الى هؤلاء القوم . وقد استقر الاندلسيون في العدوة اليمنى ولذلك سميت عدوة الاندلس ، واقام اهل القيروان في العدوة اليسرى فعرفت بعدوة القرويين .

هذه البداءة المحاطة ببشائر النجاح لم يرافقها تطور سريع في حياة المدينة . صحيح ان عدد السكان زاد كثيراً بحيث اصبح من الضروري ، في مطلع القرن الثالث / التاسع ، ان يبنى جامعان كبيران ليحلا محل المسجدين الصغيرين اللذين ضاقا بالمصلين ، وهذا هو اصل الجامعين المشهورين : جامع القرويين وجامع الاندلس ، الا ان قدر فاس كان مرتبطاً بالاسرة الادريسية ، التي لم تلبث ان تعرضت للاخطار الناشئة عن التنافس الذي ملك على افرادها لبهم ، وعن الحملات التي شنتها

عليها دولتان اسلاميتان كبيرتان ، كانت احداهما في الاندلس وكانت الاخرى في افريقية (اي تونس الحالية) ، وقد ظهرتا في مطلع القرن الرابع / العاشر . ولذلك فقـــد خبرت فاس الرفعة والضعة في هذه الفترة المضطربة التي امتدت الى الثلث الاخير من القرن الخامس / الحادي عشر .

وعندها بدت على المسرح المغربي شخصيات جديـــدة . فالمرابطون البربر الذين قدموا من الصحراء الغربية ، وكانت قد اثارتهم الحماسة الدينية ، ومن المحتمل ايضاً انهم كانوا متأثرين بدوافع ديموغرافية واقتصادية ، هاجموا المغرب من الجنوب وأسسوا مدينة مراكش سنة ٤٦٣ / ١٠٧٠ وتوسعوا في الفتح شمالاً حتى احتلوا فاس في وقت لا يسبق سنة ٤٦٨ / ١٠٧٥ . وقد كان رئيسهم ، يوسف بن تاشفين ، رجلاً له وزنه وسلطانه . وكان يعرف ما بـــين المدينتين التوأمين (عدوة القرويين وعدوة الاندلس) من غير ، لذلك هدم الاسوار الخاصة بكل منهما ، وبنى تحصينات دارت بهما معاً ، ووسع جامع القرويين فاصبح بذلك جامع المدينة الرئيسي . وقد كان توحيد فاس عملاً ذا اهمية كبرى . يضاف الى ذلك ان المرابطين اتخذوا من فاس قاعدة حربية للحملات التي شنوها على شمال المغرب ، وعلى المغرب الاوسط حيث احتلوا تلمسان ومدينة الجزائر ، وعلى اسبانية اذ استنجد بهم للدفاع عن المسلمين امـــام هجوم

المسيحيين. وقد اتيح للمرابطين ان يجعلوا من الاندلس ولاية من ولايات امبراطوريتهم الواسعة . وان لم تكن فاس عاصمة المرابطين فقد كانت ، على الاقل ، احدى مدنهم الرئيسية ، وقد طوقوا جيدها بمنة كبيرة اذ دفعوا بها في سبيل التقدم السريع . فاذا كانت فاس مدينة لاحد الادريسيّيْن بنشأتها الاولى ، فان يوسف بن تاشفين هو مؤسسها الثاني ، اذ انه وحّدها ومنحها حافزاً اقتصادياً ودينياً كبيراً .

نعمت فاس بالخير ايام المرابطين ، ولما احاق الخطر بدولتهم وقفت المدينة الى جانبهم . لكن المقاومة ذهبت سدى : ذلك بانها اضطرت ، بعد حصار شاق ، الى التسليم الى حكم الفاتح عبد المؤمن الموحدي سنة ١١٤٥/٥٤٠ . وقد كان الموحدون بربراً من الاطلس الكبير تملأ نفوسهم حماسة للاصلاح الديني. وقد احتفظوا بمراكش عاصمة لهم . وقد فرض عليهم، كما فرض على المرابطين، ان يتدخلوا في شؤون الاندلس، كما انهم فعلوا ما فعله المرابطون اذ اتخذوا فاس قاعدة لاعمالهم الحربية وللحصول على الميرة للجيوش . وقد افل نجم مدينة ادريس بعض الشيء بسبب الحروب التي شنها عليها الموحدون ، لكنها لم تلبث ان استعادت مكانتها كمركز عسكري وتجاري ومرت بفترة ازدهار على نحو ما يشهد به الجغرافي العربي الادريسي الذي عاش في اواسط القرن السادس / الثاني عشر . وقـــد وفد على فاس ، ايام المرابطين والموحدين ، عدد كبير من الاندلسيين من اصحاب الوظائف

واهل الخبرة ممن استعانت بهم الدولتان على تصريف الامور . فالمرابطون والموحدون كانوا يرجعون الى الاندلس للحصول على قسم - ولعله كان القسم الاكبر اهمية — من رجال الادارة للقيام بشؤون الامبراطورية . وثمة ما يحمل الباحث على القول بان ما عرفتــــه فاس من خبرة فنية قيمة يرجع الى ايام المرابطين والموحدين ، وان المدينة اتخذت صفتها الاندلسية المميزة بتأثير هاتين الدولتين ، وبالتدريج . ومن المحتمل ان تكون قد هبطت فاس اول جماعة من السودان في ايام المرابطين . فالمرابطون انفسهم كانوا من البربر البيض ، لكنهم كانوا قد ألفوا استخدام السودان في اعمالهم في الصحراء . وقد نقل الرواة انه كان في جيوشهم رماة من السودان . وقد يستنتج أن المرابطين جاءوا بالسودان — من حملة السلاح وغيرهم — الى فاس حيث استقروا وانشأوا اسراً فيها .

وعلى كل حال فقد افادت فاس من سيادة المرابطين والموحدين كثيراً ، ولو انها لم تصل القمة . فالمدينتان الصغيرتان اللتان كانتا تتزاحمان على كل شيء ، اصبحتا مدينة واحدة تجارية وادارية وعسكرية كبيرة . وبما انها كانت في كل من العصرين المتعاقبين جزءاً من امبراطورية عظيمة فقد رأت تجارتها يتسع نطاقهـــا اتساعاً كبيراً ، وشاهدت سكانها يزداد عددهم وتنمو قدراتهم بسبب العناصر الجديدة ، وخاصة العلماء الاندلسيين الذين كان لهم ، ولا شك ، فضل كبير في ازدهارها الثقافي . وباختصار

فقد هيأ المرابطون والموحدون مدينة فاس لان تتبوأ مركزها كعاصمة لما دعاها الداعي لذلك في ايام بني مرين .

دخل بنو مرين تاريخ المغرب حول سنة ٦١٢ / ١٢١٥ ، وقد كانوا الى ذلك الوقت لا يعدون كونهم قبيلة بربرية مثل غيرهم ، الا انها تعربت ، وكانت تتنقل بين فقيق وملوية . ولما احسوا بان دولة الموحدين بدا عليها بعض العجز ، غامروا في شمال المغرب ، وانتصروا على جيوش الموحدين الذين كانوا يحاولون صدهم ، وتسلطوا على جزء من البلاد باستثناء المدن التي ظلت على ولائها للدولة . ولم يتمكنوا من احتلال فاس واقامة دولتهم هناك الا في سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨ ، اذ افادوا من انكسار كبير اصاب الموحدين في منطقة تلمسان . وعلى كل فقد ظل الموحدون اصحاب السطوة في الجنوب حول مراكش ، كما ان اسرة بربرية منافسة اقامت لها ملكاً في تلمسان. واخيراً في سنة ١٢٤٨/٦٤٦ نفسها استطاع مسيحيو قشتالة ان يحتلوا اشبيلية ، بعد ان كانوا قد استولوا على بلنسية وقرطبة قبل ذلك بسنوات ، وهددوا المنطقة الاسلامية الوحيدة الباقية هناك وهي مملكة غرناطة ومالقة . ومن ثم فقد اضطرت الدولة المرينية الفتية الى امتشاق الحسام بدل ان تنصرف الى تعزيز العاصمة وتحسينها . وقد ظلت المدينة الموحدية نحو ربع القرن مقراً للبلاط المريني الذي اقتصر على حي منها اعد ليكون مقاماً لحاكم ولاية ، لا ليضم المنشآت والخدمات العسكرية والمدنية التي تتطلبها الدولة .

ومن الانصاف القول بان السلطان المريني لم يقم بفاس اقامة دائمة بل كان يقود حملات متعددة ، هجومية او دفاعية، ضد مراكش وتلمسان وواحة تفيلالت ، التي كان منافسوه يحاولون الاستيلاء عليها اذ ان ذلك كان يمكنهم من السيطرة على المركز النهائي لتجارة عبر الصحراء . وفي بعض الاحيان كان السلطان يقود حملات ضد اسبانية المسيحية مساعدة لمسلمي غرناطة .

وعلى كل فقد تمكن ابو يوسف المريني (٦٥٦/١٢٥٨ — ٦٨٥/١٢٨٦) من القضاء على الموحدين والاستيلاء على مراكش سنة ٦٦٧/١٢٦٩ ، والقاء الرعب في قلب حاكم تلمسان ، والقيام بحملة ناجحة ضد اسبانية . فلما اطمأن الى استتباب سلطانه التفت الى عاصمته ليجعل منها مدينة تفي بحاجاته . فوضع في سنة ٦٧٦/١٢٧٦ أسس مدينة جديدة ، هي فاس الجديد ، على مقربة من المدينة القديمة (على نحو ٦٧٥ متراً) حيث اصبح بامكانه ان يقيم بلاطه وينظم الخدمات الادارية اللازمة ويحفظ جنده ، وان يتم ذلك على مهل . وهكذا فبعد ان وحدت جهود يوسف بن تاشفين فاس ، عادت اليها ازدواجيتها بسبب العمل الذي تم على يــــد أبي يوسف المريني . الا ان القضية لم تعد قضية مدينتين متنافستين يفصل بينهما مجرى نهر ، لقد اصبحتا الآن مدينتين متباينتي الهوية قدر لها ان تعيشا متجاورتين : وقيض للقديمة منها ، وهي التي تسمى المدينة ان تظل مركزاً للتجارة والعلم وان تحافظ على سكانها القدامى المستقرين ، واختيرت فاس

الجديد مدينة ادارية عسكرية ، يقطنها السلطان واسرته واعيان الدولة المرينية وصغار الموظفين والخدام المتنوعو الاصل واخيراً صارت مقام الجند سواء في ذلك من جيء بهم من القبائل المرينية او من غيرها .

وقد بدت الصبغة العسكرية لفاس الجديد في التحصينات القوية التي زودت بها ، فقد دارت الاسوار المزدوجة بمعظمها وأقيمت الابراج زيادة في الحرص على تقويتها . وبذلك اصبحت المدينة حصناً حصيناً ، وقد هيئت تهيئة تامة للقيام بوظيفتها . وكانت الى ذلك مقام السلطان وكبار رجال الدولة . وقامت فيها قصور متعددة ، وكان قصر السلطان يزهو على غيره من القصور بسعته ومحتواه . ولم ينسَ الناس العبادة ، اذ انه لمـــا انشئت المدينة بني جامع فخم على مقربة من القصر الملكي . وقد تمت للمدينة حاجتها بثكنات الجند القائمة فيها . امـــا العدة الاقتصادية في فاس الجديد فقد اقتصرت على أمور بسيطة ، ذلك لان الاسواق والمخازن والمصانع القائمة في المدينة القديمة كانت جمة النشاط وكانت تكفي المنطقتين . وهكذا اتيح لأبي يوسف ، بسبب هذا البناء ، ان يهب اسرته مقاماً لائقاً بها ، وييسّر للمدينتين المتجاورتين ان تعملا بطمأنينة دون ان تعيق اي منها الاخرى . وباختصار فقـــد كان الامر توسيعاً كبيراً لفاس .

كان حكم ابي يعقوب ، ابن ابي يوسف ، (الممتد من سنة

١٢٨٦/٦٨٥ الى ١٣٠٧/٧٠٧) غاية في الاضطراب ، اذ انه قضي عليه ان يجابه عدداً من الثورات ضده ، وان يشن غارات متتابعة ضد جارته مدينة تلمسان ، ومن ثم فلم يتح له الوقت الكافي لان يولي عاصمته العناية اللازمة ، فاقتصر جهده على تشجيع ما كان يتم في فاس الجديد من التطور ، وهي المدينة التي لم تكن قد بلغت بعد النضج التام .

بعد هذا الحكم العاصف بالحروب تمتع المغرب بقرابة ربع قرن من السلم . وبعد ان اصيب اثنان من شباب سلاطينها بالمرض الذي قضى عليهما ، انتقلت السلطة الى ابي سعيد عثمان، اخي ابي يعقوب ، الذي امتد حكمه من سنة ١٣١٠/٧١٠ الى ١٣٣١/٧٣٢ . كان محباً للسلم جانحاً له وقد نجح في تجنب الحروب بوجه عام . وقد افادت فاس من السلم لان هذا كان منشطاً للتجارة اصلاً ، ولأن الحاشية ظلت في العاصمة ، فوقع انفاق الاموال هناك . يضاف الى هذا ان أبا سعيد وجّه اهتمامه الى تجميل المدينة القديمة ، التي لم تكد تتبدل من ايام الموحدين .

كان ابو يوسف قد بنى صرحاً للعلم على مقربة من جامع القرويين سمي مدرسة النحاسين لانها كانت تقوم بين حوانيت المشتغلين بالقدور النحاسية . وقد بنى ابو سعيد وابنه ابو الحسين ثلاث مدارس اخرى ، الواحدة في فاس الجديد قرب جامعها الكبير ، اذ ان السلطان المريني اراد ان يجعل منها داراً للعلم . والثانية على مقربة من جامع الاندلسيين ، وقد كانت هذه في

الواقع مدرستين احداهما مدرسة الصهريج وهي فسيحة الرقعة جميلة البناء ، والثانية كانت اصغر حجماً وانصرفت الى نوع من التخصص على ما يدل عليه اسمها اذ انها دعيت مدرسة القراءات السبع . اما المدرسة الثالثة فهي مدرسة العطارين التي كانت تقوم على مقربة من جامع القرويين وسوق العطارين ، وكان قد بدىء ببنائها سنة ١٣٢٣/٨٢٤ وتم البناء بعد سنتين . وكانت هذه المدرسة الاخيرة مزخرفة جداً بالخشب المحفور والجبس المقرنص والقيشاني (الزليج) المدهون، وهي امور جعلتها احدى جواهر العمارة المرينية . وقد أكدت هذه التحسينات اهتمام بني مرين بعاصمتهم . وأتيح لمثل هذا الاهتمام ان يبدو بشكل أوضح في عهـــد السلطانين اللذين خلفا أبا سعيد وهما ابو الحسن (١٣٣١/٧٣٢ — ١٣٥١/٧٥٢) وابو عنان (١٣٥١/٧٥٢ — ١٣٥٨/٧٦٠) ، فقد تهيأ لهما ، الواحد تلو الآخر ، ان يجعلا من فاس واحدة من اعظم المدن في العالم الاسلامي .

٢ فاس في القرن الثامن

كانت مدينة فاس ، في الفترة التي نحن معنيون بها الآن ، تتكون من قسمين منفصلين انفصالاً تاماً : المدينة الملكية ، التي عرفت فيما بعد بفاس الجديد ، والتي عرفت ايام بني مرين (الى القرن العاشر / السادس عشر) بالمدينة البيضا ، والمدينة القديمة التي وحّدها ابن تاشفين ، وسميت فاس البالي او ، بالاختصار ، المدينة . ويجب ان يضم الى ذلك بضع ضواح او املاك سلطانية كانت تقوم خارج الاسوار .

كانت فاس الجديد ، قبل كل شيء، مدينة عسكرية : وكان سورها الاحمر المزدوج ، الذي كانت تعلوه الابراج وتدعمه الحصون المربعة يشير بما لا يقبل الشك الى رغبة مؤسسيها في اتخاذها قلعة منيعة . وقد بنيت قبل استعمال المدافع ، لذلك زيد في تحصينها في اواخر القرن العاشر / السادس عشر ، اذ اضيفت الى سورها ابراج يمكنها ان تحمل المدافع . وفي القرن الثامن / الرابع عشر كان مظهرها ، من اي جهة كان الاقتراب منها ، يلقي الروع في نفس العدو الذي قد يقبل عليها ويحمله على الحذر . وقد كان يزيد في منعتها ، على اكثر من جهة واحدة ،

الماء الذي حُوّل من وادي فاس ليشكل خندقاً يحيط بتحصيناتها .

ولم يكن مخبرها من الداخل يتعارض مع مظهرها الخارجي – فقد كان فيها حيان يحتل كلاً منهما فريق من الجند المريني يختلف عن الفريق الآخر . وقد كان احد هذين الحيين ، وهو الذي سماه احد المؤرخين المسلمين ربض النصارى ، يأوي اليه الجنود من المسيحيين المكونين من القشتاليين والقطلانيين ، الذين كان بنو مرين قد ضموهم الى صفوف جندهم في وقت مبكر . وقد كان سلاطين المرابطين والموحدين قبلهم يستخدمون جنداً من المسيحيين ، كما ان سلاطين بني حفص في تونس ، وهم معاصرو بني مرين ، كان عندهم حرس من القطلانيين ، وقد خصصوا لهم حياً خاصاً في الحاضرة . اما الحي الآخر ، الواقع جنوبي المدينة البيضا الشرقي ، فكانت فيه ثكنات الرماة السوريين الذين كانوا جزءاً من الجيش المريني . وكان هذا الحي يسمى حمص ، لان اكثر هؤلاء الرماة كانوا يأتون من المنطقة التي تحيط بحمص في سورية . وقد تبدل هذا الحي اسماً وعملاً في نحو قرن من الزمان ، بعد ان نقل اليه يهود فاس حول السنة ٨٤٢ / ١٤٣٨ . ويبدو ان اليهود كانوا يقيمون في فاس البالي من وقت انشائها الى تلك السنة . ثم وقعت احداث لم تصلنا اخبارها واضحة ، فأمر السلطان المريني اليهود بأن ينتقلوا الى ذلك الحي ، تجنباً للتوتر القائم بين المسلمين واليهود . ولعلّ

ان قد خلا من الرماة السوريين في ذلك الوقت ، لأن بني
انوا قد تعرضوا لصدمات كثيرة ولم يعد بإمكانهم ان
لى فئات من الجند كان وجودها يعتبر من الامـــور
ة . واذ لم يعد ثمة مبرر لاستعمال حص اسماً للحي ،
ـ عنه تدريجياً باسم الملاّحة ، الذي يعود في الغالب الى ان
نيأ بالملح ، وادي ملاح ، كان يجتاز الحي او يعبر على
نه .

ضافة الى المصانع والثكنات العسكرية كانت فاس الجديد
ـر السلطان ومنازل كبار رجال الحاشية . ومن المتعذر
ف ما كان عليه القصر ايام ابي الحسن وابي عنان ، اذ انه
ل وتغير كثيراً فيما تلا من الايام ، حتى ان اي دراسة
قد لا تنتهي الا بنتائج احتمالية . ومع ذلك فان مثل هذه
ـة لم يقم بها احد بعد . ومن المحقق ان قصر المرينيين ،
ن يتصل به من ابنية ، كان يشغل رقعة اصغر بكثير من
التي يشغلها القصر اليوم . وكما هو عليه الحال في الوقت
ر ، فقد كان القصر مكوناً من مبان للادارة يجتمع فيها
اء واعوانهم للمشاورة ومن المباني المخصصة لسكنى صاحب
وامرته وحاشيته . وكانت زخارف القصر تتألف من
م والفسيفساء الملونة والجبس الانيق الشغل والسقوف
ـية المدهونة والثريات النحاسية الضخمة التي كانت تحمل
ج الموقدة بالزيت . وكان الاثاث من الفرش تكسوها الاقمشة

فاس : ملتقى طرق في المغرب
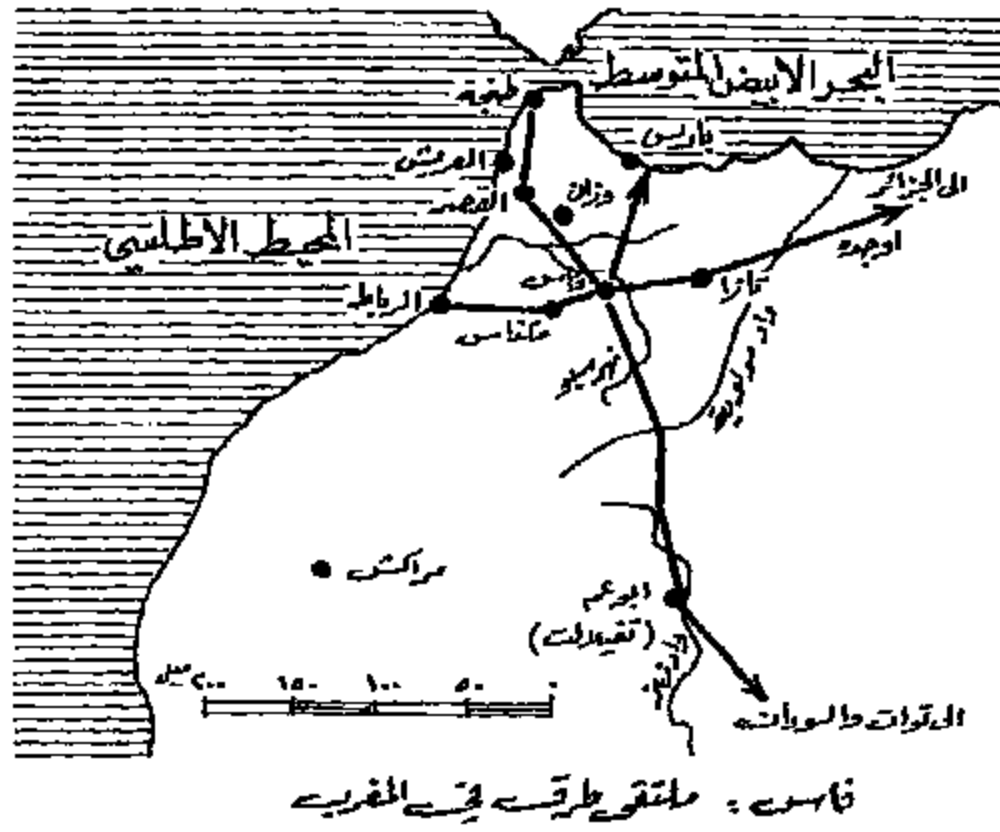
الثقيلة والبسط السميكة من صنع البربر وقطع قليلة من الاثاث المصنوع من الخشب المحفور . وكانت غرف الاستقبال تنفتح على عرصات تحيط بها الجدران من كل جهة : وكانت ارض هذه العرصات مغطاة بالقيشاني (الزليج) الملون ، وتتخلل ذلك احواض الزهور والاشجار المثمرة . وقد تقوم في بعضها نافورة يهبط ماؤها بعد ارتفاع في بركة وضعت في قلب العرصة . والى جانب القصر كانت تقوم دار الضرب ، التي كان يسكنها في الوقت ذاته العمال المكلفون بسك النقود الفضية والذهبية والموظفون المسؤولون عن ضبط الحساب .

كانت منازل رجال البلاط اصغر رقعة واقل زخرفاً من القصر الا انها كانت تشبهه في ترتيبه العام، وكانت تحيط بالقصر والجامع الكبير الانيق الذي بناه ابو يوسف . واخيراً فقد كان في شمال المدينة باب ضخم ، على كل جانب منه زوجان من الابراج المربعة ، وكان له من الجلال ما يجعله جديراً بان يكون مدخلاً الى المدينة الملكية . وكان يسمى باب السباع ، ولعلّ ذلك يعود الى سباع كانت صورتها منقوشة هناك الا انها امحت .

كانت هذه المدينة الجديدة تتزود ببعض حاجتها من المياه من آبار في داخلها ، الا ان جل حاجتها كانت تحملها اليها قناة من نبع يبعد عنها بضعة كيلومترات . وهكذا فقد شاءت حكمة السلطان ابي يوسف ان تترك مياه وادي فاس جميعها ليتصرف بها اهل المدينة القديمة ، وبذلك جُنّب السكان الشديدو الحساسية والواعون لحقوقهم اسباب الخصومة الجدية حول الماء .

كانت فاس الجديد مدينة منبسطة ، وقد اختط حدودها ابو يوسف . وكانت المدينة القديمة في وضع مختلف تماماً : فقد توزعت البيوت على السفوح القائمة على ضفتي واد ضيق ، والتي كانت شديدة الانحدار في مواضع كثيرة . وقد احتفظت المدينة ببعض ما كان لها من قبل من شخصية مزدوجة . وواضح ان « المدرتين » ، الاندلسية على الضفة اليمنى ، والقيروانية على الضفة اليسرى ، كان يدور بها سور واحد . ولا شك في ان

يوسف بن تاشفين ، اذ وسع جامع القرويين وزخرفه بسخاء ، انما كان يرمي الى منح المدينة مركزاً واحداً ، على الاقل في الناحية الدينية . ولم يحاول خلفاؤه الموحدون تبديل خططه . ولكن الجهود المتعددة التي بذلت لتوحيد المدينة لم تقض تماماً على الشعور المحلي القائم ، او حتى العداء المستحكم ، بين العدوتين . والعمل الذي قام به ابو سعيد وابو الحسن من حيث بناء المدارس قرب جامعي القرويين والاندلس ، يوضح لنا ان بني مرين لم يروا من الحكمة ان يفرضوا على المدينة وحدة كان مظهرها الطبيعي قائماً لكنها لم تكن قد نمت جذورها من الناحية العاطفية .

والواقع ان فاس البالي ظلت ايام بني مرين ، كما ظلت الى يومنا هذا ، مدينة ذات مركزين . فالنواة القائمة في العدوة القيروانية والمكونة من جامع القرويين والسوق (القيسارية في لغة فاس) المحيطة به، تقابل جامع الاندلس والسوق المحيطة به . وكانت السوق في العدوة الاندلسية أقل شأناً وازدحاماً وتجارة من السوق في العدوة القيروانية، فلم تحظ باسم « قيسارية » الذي أطلق على السوق المقابلة لها . الا انها كانت موجودة ، وقد قبلت ، على مضض ، بتفوق السوق القيروانية . على انه يتوجب علينا الا نبالغ في ازدواج طبيعة المدينة . فهي اذا قورنت بمدينة المرينيين الجديـــدة لم تبد كأنها مدينة يدور بها سور واحد

، بل كأنها كيان حي حقاً ، وهي فخورة بقدمها وبما
تقاليد .

لا تزال اسوارها قائمة : انها تعود الى اوائل القرن
/ الثالث عشر ، ولم تمر بها تغييرات ذات اهمية .
ار ، كاسوار فاس الجديد ، متينة ، سميكة الجدران
تحصينات ناتئة وتحيط بها ابراج مربعة . تخترق هذه
ار ثمانية ابواب ، موزعة توزيعاً يكاد يكون متساوياً حول
السور : اربعة منها في الضفة اليمنى ومثلها في الضفة
ى . وكان بعض هذه الابواب ، كباب المحروق في الغرب ،
ا ، اما الاخرى ، التي ليس لدينا وصف لها ، فلعلها كانت
ت في السور فقط . وكانت لكل باب مغالق تدور على
ات لعلها كانت تقفل كل ليلة ، ولا شك في انها كانت تقفل
مرضت المدينة لخطر خارجي .

وكانت تقوم ساحات متعددة على مقربة من الاسوار داخل
الرقعة ذات الشكل الشاذ الذي وصفناه ، كما كان هناك منذ
الامر ، مقبرتان الواحدة في الضفة اليمنى جنوبي المناطق
ورة ، والثانية في الضفة اليسرى شمالي الاجزاء المبنية . ومن
كد انه في ذلك الوقت ، على نحو ما كانت عليه الحال في
ع القرن الحالي ، كانت الحدائق المتعددة تحتل مساحة واسعة
يا ، وكانت تزرع فيها الاشجار والزهور وحتى الخضار .
نت هذه ، مثل المقبرتين ، تمتد على مقربة من الاسوار وتكاد

تدور بالمحيط الداخلي لهذه التحصينات ، بحيث ان المنازل قلما التصقت بالاسوار . وقد دل هذا على بعد نظر عند بناة المدينة من الموحدين لما خططوا المدينة ، ولعلهم قصدوا من ذلك ان يعطوا للمدافعين عن المدينة المساحة التي تمكنهم من التنقل والعمل بسهولة اذا ما دهمهم الخطر . وباختصار فان اجتياز السور لم يكن يعني الدخول الى المدينة بالذات ، بل الى ضاحية قريبة الشبه بالريف . وفي هذه الاجزاء المحيطة بالمدينة كانت تقوم بضع صناعات مهمة مثل صناعة الفخار الواقعة الى الشرق من العدوة الاندلسية ومعاصر الزيت التي كانت تتجمع حول الابواب التي يرد الزيتون عن طريقها الى المدينة – باب الجيسة في الشمال وباب الفتوح في الجنوب . وكانت مناشر الاخشاب مجمعة عند هذين البابين ايضاً ، وهما البابان اللذان يبدو انهما كانا منفذي الحياة الاقتصادية في فاس . وكان ثمة منطقة صناعية اخرى تمتد الى جانب الفرع الرئيسي من النهر ، وهو الفرع الذي كان ، لبضعة قرون ، يفصل العدوتين احداهما عن الاخرى . فجميع الصناعات التي كانت تدار بقوة الماء ، او التي كان الماء عنصراً اساسياً لها ، كانت تجتمع هناك : كالمطاحن التي كانت تفيد من انحدار الماء القوي نحو داخل المدينة لادارة ارحائها ، والمدابغ والمصابغ التي كان يلزمها الماء دوماً لغسل الجلود والصوف . وثمة صناعات اخرى ، وان كانت حاجتها للماء قليلة ، استقرت هناك بسبب وعي اصحابها الذين انجذبوا الى منطقة صناعية اختارها الآخرون قبلهم . فقد كانت مصانع الحياكة والنعال

والنحاسة والحدادة وما الى ذلك توجد هناك . وباختصار فانه من اليسير تمييز ثلاث مناطق صناعية : واحدة في الشمال حول باب الجيسة، وواحدة في الجنوب حول باب الفتوح ، وثالثة في الوسط على جانبي النهر . وبالطبع فان هذا لا يعني انه لم تقم مؤسسات صناعية في اماكن اخرى : فالحاكة وصانعو الاحذية والاسكافيون والحدادون والجواهريون ، وغـــيرهم كثيرون ، كانوا موزعين في جميع انحاء المدينة تقريباً .

وكانت حال التجارة ، كحال الصناعة، تكاد تكون مركزة في منطقة واحدة . فعلى مقربة مـــن الابواب الرئيسية (باب الجيسة وباب الفتوح وباب المحروق) كانت تقوم بضع من اسواق الجملة ، وخاصة اسواق الحبوب : وبذلك امكن تجنب نقـــل المتاجر الثقيلة الضخمة بكميات كبيرة عبر الشوارع الضيقة . وفي وسط المدينة ، على مقربة من جامع القرويين ، كانت تنتشر القيسارية التي تشبه مخزناً عصرياً كبيراً ، حيث كان المشترون يجدون اكثر الاشياء التي يحتاجونها من قمـــاش وحلي وعطور وأفاويه ومصنوعات جلدية وكتب وشمع وقناديل ونعال . وكانت السوق القريبة من جامع الاندلس تحتوي على الاشياء نفسها ولكن على مقياس اصغر . ولم تكن القيسارية تتكون من حوانيت فحسب ، اذ كانت تقوم الى جانب هذه مخازن يسمى واحدها فنـــدق حيث كان تجار الجملة يخزنون متاجرهم التي يستوردونها من الخارج قبل بيعها الى تجار المفرق في القيسارية .

وفي اغلب الاحيان لم تكن ثمة حاجة لخزن ما تنتجه الصناعة المحلية ، اذ كان المنتجون يحملون مصنوعاتهم الى المزاد العلني الذي كان يقام عادة على مقربة من القيسارية او في ساحة اي من الفنادق او حتى في ازقـــة القيسارية نفسها . وكان اصحاب الحوانيت يبتاعونها هناك وينقلونها الى حوانيتهم . والاغذية والادوات المستعملة يومياً ، كالحلل والصحون ، كان يمكن للجمهور الحصول عليها في الاسواق المجاورة ، التي كانت تقوم على جوانب الشوارع العامة الرئيسية ، اي انها كانت منتشرة في المناطق المعمورة كلها .

اما ما يسمى اليوم مناطق السكن فقد كان يقع بين الاحياء التجارية والصناعية المختلفـــة . كانت المنازل تتصل بالشوارع بمداخل جانبية ، وكان لها كوى متعـــددة تمكن السكان من التعرف على هوية الزائر قبل السماح له بالدخول . وكانت عرصة الدار الداخلية سبيل الهواء والنور الى هذه المساكن ، اذ انها كانت كلها مبنية حول ساحة متسعة نسبياً ، فلا تتعرض النساء للرؤية من الخارج . واذا كانت هذه الساحات صغيرة ، فان النساء كن يتمتعن تمتعاً خاصاً بمنطقة مفتوحة للهواء الطلق وهي الاسطحة ، اذ ان بيوت فاس كلها كانت اسطحتها منبسطة . وقد كانت المنازل تتقارب من بعضها البعض في وسط المدينة ، وكانت عرصاتها صغيرة ، اما في الجهات الخارجية فكانت المنازل متباعدة وكانت ساحاتها اوسع .

ولم تكن الابنية العامة ، باستثناء المساجد ، كثيرة . فقد كانت الابنية الادارية في واقع الامر قائمـــة في فاس الجديد ، باستثناء مكاتب حاكم المدينة القديمة ، التي ظلت في القلعة منذ ان اضافها الموحدون الى طرفها الغربي . ولم يكن ثمة ما يعادل دار البلدية التي كانت شائعة في مدن اوروبة في العصور الوسطى ، اذ ان ادارة المدينة ، على ما سيتضح فيما بعد ، كانت في يـــد السلطة المركزية . ومما يجب ذكره وجود مستشفى على مقربة من القيسارية . وقد جدده السلطان ابو الحسن وكان في الواقع مخصصاً للعناية بالمعتوهين . وقد كانت لهذه البناية ، كما كان للمدارس والمساجد ، صبغة دينية ، واذن يمكن الجزم بأن المباني العامة في فاس كانت كلها تقريباً تخدم أغراضاً دينية .

ويصح القـــول اجمالاً بأن المدارس كانت اماكن لسكن الطلاب اكثر منها اماكن للتدريس . وقد اضاف كل من ابي الحسن وابنه ابي عنان مدرسة الى تلك التي كان المرينيون الاوائل قد شيدوها . وقد بنى الاولى ابو الحسن سنة ٧٤٧/ ١٣٤٦ او ١٣٤٧ على مقربة من جامع القرويين ومن مدرسة العطارين ، وتسمى اليوم مدرسة مصباح ولعلّ ذلك كان نسبة الى احد مشاهير المدرسين فيها . وعلى كل فكثيراً ما اشير اليها باسم المدرسة الرخامية بسبب نافورة رخامية تقوم فيها وهي التي جاء بها ابو الحسن من المرية في الاندلس ، وقد حملت الى فاس في نهر سبو — وهي منـــاسبة من المناسبات النادرة التي

استخدم فيها هذا النهر للملاحة . وفي سنة لا نعرفها على التعيين ولكنها تقع بعد سنة ١٣٥١/٧٥٢ بنى ابو عنان أروع مدرسة في فاس ، والتي لا تزال تحمـــل اسمه الى اليوم (المدرسة البوعنانية) . تقوم هذه المدرسة في القسم الغربي المرتفع من المدينة القديمة . وقد بنيت في هذه المدرسة دون غيرها من المدارس قاعات كبيرة بحيث تكون قاعات للمحاضرات فقط . ومن ثم فقد اختط لها من اول الامر ألا تكون اماكن اقامة للطلبة فحسب ، بل معهداً خاصاً بالتعلم ايضاً . وقد كان لكل مدرسة قاعة للصلاة وقاعة للوضوء وبركة او نافورة لها حوض يتوسط العرصة ويتخذ ميضاءة . وقد كان لاثنتين من هـــذه المدارس ، مدرسة النحاسين والمدرسة البوعنانية ، منارة لكل منها . وقد زودت الثانية حتى بمنبر ، مما يثبت ان صلاة الجمعة كانت تقام فيها. وترتب على هذا ان هذه الاماكن كانت اماكن عبادة خاصة بالنسبة الى الطلاب ، ويضاف الى ذلك انها كانت اماكن يقيم فيها المؤمنون من اهل الجوار الصلاة. وهكذا كانت مدارس فاس : اماكن لسكن الطلاب ومساجد لأهل الجوار وصنعاً فنياً رائعاً، وتكاد كلها تعود في اصلها الى بني مرين . وفي الواقع فثمة مدرسة واحدة فقط بناها مولاي الرشيد ، اول سلطان من الدولة العلوية ، لصق جامع القرويين ، وكان ذلك سنة ١٦٧٠/١٠٨١ .

اما المساجد فقد شيدت اصلا اماكن للعبادة ، الا انها آلت

ايضاً الى اماكن يجتمع فيها اصحاب المصالح العامة والخاصة . فكانت بلاغات الدولة الرسمية تقرأ عند اقامة صلاة الجمعة . وكانت خطبة الجمعة تبدأ بالصلاة على النبي الكريم والتسليم على خلفائه الاقربين والدعاء للسلطان القائم . فاذا كان ثمة نزاع على السلطة بين متنافسين متعددين كان لخطبة الجمعة شأن سياسي كبير . وقد كان الآباء يجتمعون في المسجد لتدبير امر الزواج بين الولدين : فاذا تليت الفاتحة ، بارك الحضور من الاصدقاء للآباء بذلك . ومعنى هـــذا ان العقد تم في حضرة الله العلي . وكثيراً ما كانت العقود التجارية يتم الاتفاق عليها في المساجد ومن ثم تتخذ الشروط المتفق عليها طابعاً دينياً روحياً . واخيراً فقد كانت الجنازة تؤخذ الى المسجد للصلاة عليها قبل الدفن . ولم يكن الجثمان يوضع في قاعة الصلاة ، بل في قاعة اصغر مجاورة لها تشاد لهذا الغرض . ومن ثم فمن السهل ان نرى الدور الذي كان يقوم به المسجد في حياة اهل فاس : فلم يكن غريباً ان تكون هذه المباني ضخمة انيقة بحيث ان مكانتها واثرها العاطفيين لم يقلا عن روائها المعماري .

وقد بنى بنو مرين عدداً ضئيلاً من المساجد في فاس البالي ، اذ انها كانت قد نالت حظاً كبيراً منها قبل ايامهم . وقد بنى سلاطين الدولة العلوية عدداً اكبر من المساجد بين القرنـــين الحادي عشر/السابع عشر والثالث عشر/التاسع عشر . والحق ان المرينيين اضطروا الى بناء عدد من المساجد في فاس الجديد .

فبالاضافة الى الجامع الكبير الذي شيد لما أسست المدينة ، فقد بنوا ، في مطلع القرن الثامن / الرابع عشر على الغالب، مسجداً آخر في الشارع الرئيسي وهو المعروف بالجامع الاحمر . وثمة مسجدان آخران بنيا في القرن التاسع / الخامس عشر في فاس الجديد هما لالا غريبة ومسجد الزهرة . وقد أضاف المرينيون الى المدينة القديمة مسجدين مهمين فقط هما : مسجد الوراقين ومسجد ابي الحسن ، وكانا كلاهما في عدوة القرويين ، وهذا دليل على ان هذا الجزء من المدينة برزت فيه حاجات جديدة ، بينما لم تكد عدوة الاندلس تتغير قط .

كان التنقل داخل مدينة فاس تنتظمه الشوارع ، الا انها لم تكن تشبه الشوارع العريضة المستقيمة التي عرفتها المدن الرومانية ، ولا كانت تماثل شوارع مدن اوروبة في العصور الوسطى التي كانت متعرجة الا انها كانت عريضة نسبياً . ذلك لان العربات لم تكن معروفة في فاس كما انها لم تكن معروفة في مدن شمال افريقية جميعها تقريباً، فكان القوم يتنقلون مشاة . واما الاثرياء منهم فكانوا يمتطون البغال الفارهة المعلوفة جيداً والتي نالت عناية مفرطة . وكانت المتاجر يحملها الرجال او تنقل على الحيوانات : على الحمير او البغال او الخيول . ومن ثم فلم تكن ثمة حاجة الى شرايين المرور الواسعة : فكان يكفي ان يتسع الشارع لمرور دابتين محملتين . يضاف الى ذلك ان تنظيم المدن لم يكن معروفاً في شمال افريقية في العصور الوسطى .

ويبدو كأن نظام الشوارع في فاس البالي كان نتيجة احوال اعتباطية وتسلط اصحاب الممتلكات الخاصة على الارضين مسبقاً. وترتب على ذلك ان الشوارع ، حتى المهم منها ، تلوى وتعرج ليدور حول ملك خاص. الا انه كان ثمة شرايين كبيرة تصل بين مركزي العدوتين – القرويين والاندلس – وصلاً يكاد يكون مباشراً ، وتجتاز جسوراً تعلو النهر ، كما كانت تصل المركزين بابواب المدينة الرئيسية الثلاثة : الشمالي والجنوبي والغربي ، التي كانت منافذ المدينة الرئيسية الى الخارج . على انه حري بالذكر بان هذه الشوارع كانت تعترضها الابواب التي تقفل في الليل او عند حدوث اضطرابات . وكان باستطاعة كل حي ان يعزل نفسه عن بقية المدينة عند حدوث اضطراب ، والوصول الى الاحياء كان متعذراً في المساء عند حلول الظلام . ولذلك كان التنقل في الليل صعباً اولاً لانعدام وسيلة للانارة العامة فكان على كل فرد ان يزود نفسه بمصباح، وثانياً لانه كان لا بد من ان تفتح الابواب للمرور من حي الى آخر . ومعنى هذا الاضطرار الى ايقـاظ العسس الذين قد يكونون نائمين ، او انتظار عودتهم اذا كانوا يعسون في الجهة الابعد من الحي . اما ما عدا الشوارع الاساسية فقد كانت الزنقات كثيرة العـــدد . وفي الواقع فان المدن الاسلامية في شمال افريقية لم تبن وفق مخطط للشوارع ، بل ان موقع الشوارع كان نتيجة امتداد المباني . ونتج عن ذلك وجود عدد كبير من الازقة التي لا منفذ لها تدور بين البيوت

لتزود بعض "المنازل" القائمة في وسط المنطقة المعمورة بطريق توصل اليها .

اما من الجهة الثانية فقد كان نظام توزيع المـــاء مدعاة للعجب . كان من الطبيعي ان يساعد انحدار الارض وكثرة الينابيع داخل المدينة على ذلك ، لكن مهارة المهندسين هي التي افادت من هذه الخصائص المواتية افادة مدهشة . ومن المحتمل ان يكون النظام المتبع الى الآن يعود الى ايام المرابطين او الموحدين . فقد وزع مهندسو تلك الايام مياه وادي فاس ، من فوق وقبل ان يدخل المدينة ، الى عدد من القني التي يسرت للمياه ان تصل الى كل حي من احياء المدينة تقريباً ، بل حتى الى كل منزل من منازل المدينة القديمة . والاحياء الواقعة في الجزء الجنوبي الشرقي فقط كانت ، من هـــذه الناحية ، قليلة الحظ ، الا انها استعاضت عن ذلك باستعمال مياه الآبار الكثيرة هناك . واذن فيمكن القول بان مدينة فاس القديمة كلها تقريباً كانت ، في ايام بني مرين ، تتمتع بالماء الجاري . وكان لها ايضاً نظام مجارير مواز لذلك ، فكانت الفضلات تعود عن طريقه الى النهر بسهولة ، وذلك بسبب الانحدار ايضاً . وهذه التسهيلات التي تمتعت بها فاس لم تتوافر الا في عدد قليل جداً من مدن العصور الوسطى . وقد مكنت وفرة المياه للناس ان يبنوا النوافير العامة حيث كانت السقاية ممكنة دون ثمن . يضاف الى ذلك ان المساجد جمعاء كانت فيها برك وقاعات للقيام بفروض

الوضوء . واخيراً فقـــد كان في المدينة الكثير من الحمامات العمومية : وقد بني بعضها في ايام بني مرين الا ان اغلبيتها كانت قد بنيت قبل ذلك بمدة .

كان سكان فاس البالي يختلفون عن سكان فاس الجديد . فبينما كان سكان هذه يغلب عليهم الجند والاعيان والموظفون العاملون في الادارة المرينية ، وهم قوم لم تتملكهم حياة المدينة بعد ، كان سكان المدينة القديمة قد ألفوا سكنى المدن طويلاً . ومن المرجح ان العنصر البربري ، الذي كان الغالب اصلاً ، كاد لا يتميز عن غيره آنئذ . وعلى كل حال فمن المؤكد انه في القرن الثامن / الرابع عشر كانت اللغة العربية اللغة الوحيدة المحكية في فاس : وحتى الذين جاءوها متأخرين زمناً ، وكانت لغتهم الاصلية بربرية ، كانوا يستطيعون فهم العربية والتعبير عن انفسهم بتلك اللغة .

كان العنصر الغالب في المدينة الطبقة الوسطى المكونة من اصل عربي او بربري او اندلسي او قيرواني : وقد نجد آثاراً قليلة من الاعتزاز الطبقي او الشعور المحلي قد استمرت في بعض من الاسر القليلة . الا ان السكان جميعهم تقريباً قد اصبحوا « اهـــل فاس » — اي انهم احسوا بمواطنة المدينة واصبحوا يشعرون بحقهم في ان يعيشوا فيها لانهم قبلوا اساليبها وتقاليدها وقاعدتها مدة طويلة . ومن ثم كانوا يعون انهم يسهمون في حياة ناعمة رفيعة . وكان تصرف اهـــل هذه الطبقة الوسطى نحو

بساطة اهل الريف لا يخفي ترفعهم الذي لم يحاولوا اخفاءه . وقد يتفوقون غالباً ، وان لم يتفوقوا دوماً ، في الثراء والسلوك الحسن ، الا انهم كانوا يحسون خاصة بتفوقهم في الوقار واللباقة الاجتماعية واليقظة العقلية ، وفوق كل ذلك ، بالتقوى . فبينما كان اهل الريف يعرفون الشريعة واصول العبادة معرفة ضئيلة او معتدلة ، وبينما لصقت بتقواهم الخرافات ، كان اهل فاس يشعرون بانهم يملكون الضمير الواعي المتوجب وجوده في حفظة الكتاب . ويجب ان يضاف ، بموضوعية ، انهم لم يكونوا على خطأ دوماً ، الا انهم لم يبلغوا من محجة الصواب ما حسبوا انهم بلغوا منها .

كانت الطبقة الوسطى مكونة من ثلاث فئات من الافراد. اولهـــا التجار بمعنى تجار الجملة الذين كانت بضاعتهم من الكماليات ، والذين كانت معاملاتهم التجارية اصلاً محلية لكنها كثيراً ما شملت المغرب بكامله (فبعض منتوجات فاس كانت تصل مراكش وما وراءها) ، وقد تصل الاجزاء المظلمة من افريقية ، وذلك بفضل القوافل ؛ وقد تبلغ اوروبة وذلك بواسطة عـــدد من موانىء البحر المتوسط التي كانت سفن البنادقة والجنويين واهل بروفنسال تقصدها بانتظام ؛ واخيراً فان التعامل التجاري كان يشمل ما تبقى من شمال افريقية ومصر وذلك بفضل الرحلة الى الحج ، التي كثيراً ما تكون في الوقت ذاته رحلة للتجارة والقيام بالفرض الديني المقـــدس .

والارباح التي يفيدها التجار من هذه المعاملات كانت تستثمر في التجارة، الا انها كثيراً ما استخدمت ايضاً لابتياع العقارات: إما بيوت وإما حدائق داخل المدينة او اراض زراعية في دائرة لا يتعدى نصف قطرها الاربعين من الكيلومترات. والى جانب هؤلاء التجار كانت تقوم فئة ثانيـــة، ترتبط بالاولى برباط المصاهرة والنسب، هم اهل العلم — من علماء القرويين، واهل الفكر الذين لم يكونوا يتولون مناصب في الدولة، والذين كانوا يتمتعون بمكانة محترمة وبكثير من الرخاء المادي. وقد يكون بينهم جماعة من الطلبة الذين هبطوا مدينة فاس وتمكنوا، بما أوتوا من ذكاء وفطنة، من ان يحتلوا مكانة مرموقة بين اهل الفكر في المدينة. الا انه حري بالذكر ان الغالب على فئة اهل العلم في فاس انهم كانوا من اسر استوطنت المدينة منذ مدة طويلة. واخيراً الفئة الثالثة التي كانت تنحدر من أصل اندلسي بعيد او قريب، او من اصل بربري، وهي تضم عمال الدولة واصحاب المناصب الرفيعة فيها. ويبدو ان وضعها كان يماثل وضع الفئتين الاخريين تماماً.

كان يلي النخبة هذه جماعة التجار والصناع، وكثيراً ما كانت تربطهم بالطبقة الوسطى القرابة والصلات الشخصية، لكن اهم من ذلك هو انهم كانوا يتمتعون مع اولئك بخيرات حضارة واحدة. ولم تكن هذه الجماعة تتمتع بمثل اليسار الذي تمتع به اولئك القوم، ذلك بان التجارة والصناعة، متى كانتا

على نطاق ضيق ، تدران من الارباح ما يكفي الحاجة ، لا ما يؤدي الى الثراء . وكان هؤلاء من اصل بربري لكن عهدهم بالتخلي عن قبائلهم في السهول او الجبال واستيطانهم المدينة كان قد طال حتى انهم اصبحوا ، من الناحية الادبية والخلقية ، مواطنين معتبرين . كانوا قد تزيوا بزي سكان فاس ، وتمرسوا بعادات المدينة ، واقبلوا على تقاليدها ، وانغمسوا في حضارتها ، وكان لهم ، اذا اتيح لهم الاصهار الى اهل النخبة ، وحالفهم في ذلك الذكاء ، وواتاهم الحظ ، ان يصبحوا جزءاً منها في يوم من الايام .

وبعد ذلك في السلم الاجتماعي كانت تأتي جماعة كبيرة العدد هم القادمون على المدينة حديثاً وهم خليط من اولئك الذين كانوا يهبطون مدينة فاس ساعين في سبيل الخير الجزيل ، او هرباً من القحط والمجاعة او ابتعاداً عن نقمة العائلة او القبيلة بسبب جرم اجترحوه . وقد غلب على هؤلاء ان بدأوا بالقيام باعمال وضيعة ينالون اجرها مياومة ، اذ لم تكن لديهم خبرة او مهارة : وكان هـــذا ينطبق بشكل خاص على اولئك الذين كانوا يعملون في حدائـــق الملاكين بفاس . وكان هؤلاء يسكنون في الاحياء الخارجية من المدينة وهي القريبة من الابواب التي كانوا يسلكون منها السبيل الى داخل المدينة : وكانت هذه الاحياء تحتفظ ببعض الطابع الريفي ، فتربى فيها الابقار والطيور ، حيث لم تكن المساكن عالية ولا فخمة . وكان البعض من هؤلاء ممن لم

يتأقلموا يعودون الى قبائلهم الاصلية في مناسبات الزواج او في المواسم الزراعية الجيدة . وعلى العكس من ذلك فمنهم من استقر في فاس وتعلم صناعة وزاد في عدد الصناع واصحاب الحوانيت ، مؤملاً ان يرقى مع الايام الى جماعة النخبة . وثمة جماعة حرية بالذكر بين سكان المدينة الجدد وهم العمال الموسميون . ولنمثل على ذلك : بعد جمع غلة الزيتون مباشرة، كانت معاصر الزيتون في فاس تعمل باقصى ما تستطيع ولذلك كانت تحتاج الى زيادة في العمال . فكانت بعض القبائل ، خاصة القاطنة شمالي فاس ، تفيد من بطء الاعمال الزراعية في المنطقة في ذلك الوقت ، فتبعث بقسم من عمالها الى فاس ليعملوا هناك خلال الاسابيع القليلة حيث كانت الحاجة تدعو الى ذلك . وكان بعض هؤلاء العمال الموقتين من البربر المقيمين في منطقة ملوية العليا، الواقعة على نحو ٣٥٠ كيلومتراً الى جنوب شرقي فاس ، وقد هبطوا المدينة ليعملوا حمّالين . وتقول الرواية بان هؤلاء البربر قد ألفوا المجيء الى فاس للعمل فيها منذ انشائها ايام المولى ادريس . وكان هؤلاء شباناً نشيطين ، وكانوا يقضون في فاس من الشهور او السنين ما يمكّنهم من جمع مبلغ من المال ، ييسر لهم العودة الى القبيلة للزواج ولابتياع بعض الارضين .

واخيراً فقد كان في فاس البالي جماعة من اليهود يصعب تقدير عددهم ، على انه يبدو انه كان كبيراً . ومن المحتمل ان يكون هؤلاء اصلاً من البربر الذين اعتنقوا اليهودية في عهود قديمة

وحافظوا علــى معتقدهم . من الصعب القول يقيناً بانهم كانوا يقيمون في حي خاص ، الا ان هذا قد يكون محتملاً اذا اخذ الواحد بعين الاعتبار مصطلح الاسماء لمناطق المدينة ، اذ انه ثمة حي بكامله لا يزال يعرف باسم فندق اليهود ، على مقربة من باب الجيسة ، باب المدينة الشمالي . وكان بعض هؤلاء اليهود قــد انصرفوا الى العمل في التجارة على نطاق واسع ، وبلغوا بذلك وضعاً مالياً يحسدون عليه ، وصرف البعض الآخر همته الى العلم الديني فتولوا المناصب الدينية واسهموا في ادارة المسائل الخاصة بالطائفة ، لان اليهود كانوا يسيرون بمقتضى شريعتهم . وكانت الغالبية منهم ، على الارجح ، من اصحاب الحوانيت والصناع ، فثمة صناعات معينة ، مثل الشغل بالاحجار الكريمة ، كانت مقصورة عليهم بحكم العادة ان لم يكن بحكم الشرع . ويبدو كأن اليهود جميعهم كانوا متمركزين في عدوة القرويين ، وكأنه لم يكن منهم احد يقيم في عدوة الاندلس ولا في فاس الجديد ، حيث اخذوا بالاستقرار هناك في القرن التالي .

وفي عهد بني مرين امتدت فاس خارج الاسوار ، فقد خرجت المدينة من قوقعتها ، الامر الذي يدل على الاحساس التام بالامان الذي نجح المرينيون في اقامته في الريف المحيط بالمدينة . وكان هذا يختلف عن تاريخها فيما تلا ذلك من الزمن اذ انها منذ اوائل القرن الحادي عشر / السابع عشر ، اخذت فاس ، مثل غيرها من مدن المغرب ، بالانطواء على نفسها ثانية والاحتماء وراء الاسوار .

كانت السوق الاسبوعية ، التي اطلق عليها فيما بعد سوق الخميس ، تنعقد اصلاً خارج الاسوار على مقربة من الباب الغربي. وليس من السهل القول فصلاً فيما اذا كانت السوق تقام مرة في الاسبوع ، او مرتين كما آل امرها فيما بعد . ولكن من المؤكد ان السوق كانت موجودة ، وانها كانت تقوم بدور خطير . ففي واقع الامر كانت الملتقى العادي بين سكان المدينة وسكان الريف. كان هؤلاء يأتون الى السوق بحيواناتهم لبيعها : الابقار والاغنام والماعز والبغال والحمير والخيول والطيور ، بالاضافة الى مـــا ينتجونه من مصنوعات بسيطة كآنية الفخار او القماش المزوق باشكال بسيطة . ولم يكن اهل الريف يقابلون هناك عملاءهم فحسب ، بل تجاراً من فاس يحملون اليهم الاحذية والقماش والادوات الزراعية دون ما حاجة الى دخول المدينة التي كانوا يجدونهـــا غريبة عليهم ، والتي كانوا يخشون على انفسهم من الضياع فيها. وكانوا يلقون هناك الحداد الذي يصلح لهم عدتهم، والبيطار الذي يحذو الحيوانات ، والرجل الذي يحمل الحجب والعلاج ، واخيراً القاص والمهرج اللذين يدخلان السرور الى نفوسهم . وعندما يكون الطقس جميلاً – وهي ايام تكثر في فاس – تصبح السوق مجتمعاً اسبوعياً يأتيه اهل الريف من اماكن قد تبعد عن المدينة بين عشرين وخمسين من الكيلومترات، بحيث يعودون منها وقد جمعوا بعض النقود ، اذا استطاعوا ان يتغلبوا على مغريات المدينة التي لا تحصى، وهناك يتبادلون الآراء ويتلقون الاخبار . فسوق الخميس لم تكن حدثاً اقتصادياً

فحسب ، بل كانت تزود قصادها بحاجتهم للراحة والمتعة ، وكانت سبيلاً لتكوين الرأي العام وصياغته بين سكان الريف .

وقد كان لاحد سلاطين بني مرين ، ولعلّه السلطان ابو يوسف ، حديقة ملكية كانت تحتل سفح تل تكسوه غابات الزيتون ويقع الى الشمال من فاس الجديد: وقد كان فيها بركتان (صهريجان) لا تزال بعض آثارهما قائمة الى الآن . وكانت البركتان لري الحديقة كما كانتا مبعث سرور للسلطان وجلسائه، وكانت توصل المياه اليها ناعورة ضخمة كانت تقوم على مقربة من باب السباع ، فكانت الناعورة ترفع الماء من النهر الى قناة تحمله بدورها الى البركتين . ولا شك في ان المكان كان رائعاً لما نمت الاشجار واينعت الزهور . وكانت الحديقة تعلو المدينة الملكية بعض الشيء ، فكان الواقف فيها يتبين احياء المدينة القديمة والمنظر العام لسهل سايس وجبال الاطلس الاوسط التي غالباً ما كان الثلج يغطيها. وكان في الحديقة بيوت بنيت اكراماً للضيوف والزوار الممتازين ليقضوا فيها لياليهم .

لقد انشأ احد سلاطين بني مرين ، في وقت لا ندريه بالضبط ولكنه لا يفصله عن الفترة التي نتحدث عنها الا القليل من الزمن، متنزهاً على التل المشرف على فاس البالي مباشرة من جهة الشمال . وقد سميت هذه فيما بعد قبور بني مرين ، لان مقبرة اخذت تحتل سفوح التل تدريجاً ، اما في اول الامر فلم يكن ثمة سوى متنزه ومسجد لا تزال بعض آثاره قائمة . وكانت فاس البالي

تمتد امام الرائي واضحة المعالم ، كما كانت التلال الواقعة وراء ذلك والمكسوة بغابات الزيتون ، تبدو كأنها تسامت الاطلس الاوسط . لقد كان المنظر آية في الروعة ، ولم يمنع السلطان احداً من حق الاستمتاع به . يضاف الى ذلك ان الرواية تقول ان مستشفى للجذام كان يقوم في واد منزوٍ في شمال المدينة الغربي . واخيراً فقد كانت تقوم ، غربي فاس البالي وشمالي فاس الجديد ، مناطق عديدة فيها المباني غير المتناسقة والمتلاصقة بعضها البعض ، كان يأوي اليها اسر العمال الذين هبطوا المدينة من الريف حديثاً . فقد كانوا يفضلون هذه المنطقة التي لا يزال يغلب عليها الطابع الريفي على الاماكن المزدحمة داخل المدينة ، اذ كانوا يشعرون هناك كأنهم في سجن . وقد كان هناك حتى قرية خاصة بالغسالين تقع على شاطىء النهر الى الغرب من فاس الجديد . ولعله كان في تلك الضواحي الخارجية ، اذا صدق الرواة ، الافاقون الذين كانوا يفضلون الاقامة بعيداً عن رقابة الشرطة .

والاثر العام الذي نحصل عليه هو ، اذن ، ان مدينة فاس كانت نشيطة ثابتة متزنة ، مزودة بكل ما يرغب فيه طلاب المتعة والراحة من وسائلها المختلفة .

٣ إدارة المدينة

من الجلي ان الاشارة الى فاس في ايام بني مرين لا تعني مدينة واحدة فقط ، بل مدينتين ، هذا باستثناء الضواحي التي كانت قد قامت خارج الاسوار . ففاس الجديد والمدينة القديمة كانتا في واقع الامر وحدتين اداريتين متميزتين احداهما عن الاخرى تماماً . وليس لدينا ما يدلنا على الاسلوب الذي اتبع في ادارة المنطقة المعمورة خارج الاسوار ، هذا اذا كانت ثمة ادارة قط . وباستثناء مستشفى الجذام ، الذي كان تابعاً لادارة املاك الوقف ، فان هذه المناطق يبدو عليها انها كانت تجمعات موقتة تمت خارج نطاق المنظمات المدنية وقيودها ، ولم تحاول ان تنضم في اطار منظم .

لا تتوفر لدينـا معلومات دقيقة عن طريقة ادارة فاس الجديد ، لكن من القليل الموجود يمكن الاشارة الى عناصر ثلاثة يختلف كل واحد منها عن الآخر . واولها القصر وما يحيط به ، الذي كان طبعاً تحت ادارة السلطان واعوانه مباشرة . وكان الاعوان يدخل في عدادهم الوزراء ، الا ان الغالب عليهم انهم موظفو الحـاشية الذين كانوا يتحكمون بعدد كبير من

صغار الموظفين ويستبدون بالخدم ، رجالاً ونساء . ويلي ذلك ثانية الوحدات العسكرية التي كانت تقطن هذه المدينة المعسكر والتي كانت تحت امرة الرؤساء والقواد المباشرة . واخيراً فهناك السكان المدنيون من اهل فاس الجديـــد واكثرهم من الاعيان وموظفي الدولة ، الذين كانت لهم منظماتهم : كالوالي الذي كان ، في الارجح ، رجلاً عسكرياً ، لكنه كان خاضعاً للسلطان ، والقاضي الذي لعلّه كان قاضي الجند . وليس ما يدل على وجود محتسب في فاس الجديد على نحو ما كان في المدينة القديمة : فقد كانت الحياة هناك بسيطة بحيث لم تتطلب مثل هذا الموظف . وليس ما يدل على وجود نظام للاحياء على نحو مـــا عرفته المدينة المجاورة . فقد كانت اقسامها القصر والثكنات ومنطقة السكن الخاصة بالموظفين : وكان لكل من هذه المؤسسات نظمها التي كانت شبيهة بعض الشيء بتقسيم المدينة الى احياء . ويمكن القول باختصار ان فاس الجديد كانت مدينة تعيش في ظل السلطة الملكية كما انها كانت متشعبة تشعباً كبيراً بحيث انها لم تتمّ نظماً مدنية حقيقية .

وكان الوضع في المدينة القديمة مختلفاً تماماً . فالمئات القليلة من الامتار التي كانت تفصل بينها وبين المدينة الملكية جعلت منها عالماً يختلف كلياً عن ذاك ، من وجهة النظر الادارية .

فقد كان يتحكم في شؤونها ثلاثة من اصحاب المناصب ، يعين كلاً منهم السلطان او وزراؤه : الوالي والقاضي والمحتسب .

وكان الوالي ممثل السلطان المباشر وكان مخلصاً له اخلاصاً كلياً لان مستقبله كان يعتمد عليه . كان عليه ان يستوثق من ان أوامر سيده نفذت ، وكان مسؤولاً عن المحافظـــة على الامن والنظام ، وبذلك كان صاحب الشرطة ، وكان يتولى النظر في قضايا العقوبات والاجرام . وكان مسؤولاً عن تنفيذ الاحكام التي يصدرها ، سجناً كانت او جـــلداً عاماً . واذا جاز استعمال التعبير فقد كان موظفاً مدنياً : فلا تعيينه ولا واجباته كانت مرتبطة بالمسائل الدينية ارتباطاً مباشراً . وكان يقيم في قلعة من بناء الموحدين ، او لعلها كانت من ترميمهم ، تقع غربي المدينة . ولكن هل كان من الجند ؟ ان السؤال يبدو في غير محله ، بالنسبة الى دولة لم يكن يتميز فيها الوضع المدني عن العسكري ، اذا قورن ذلك بالفرق القائم اليوم ، ولم يكن ثمة عمل اداري عسكري يتميز عن عمـــل اداري مدني ، بل ثمة عمل لخدمة السلطان .

اما القاضي فقد كان ، على الضد من ذلك ، موظفاً دينياً اصلاً . وكان واجبه الاول ان يقيم العدل على اساس الشريعة – فلم يكن عليه تنفيذ اوامر السلطان ، بل ما امر به الله ومن ثم فقد كان ، قبل كل شيء ، يحكم في جميع الخصومات المتعلقة بالاحوال الشخصية ، معتمداً في ذلك على القرآن الكريم والفقه الذي نما حول الكتاب . ومن ثم فقد كان من الضروري ان يكون القاضي ضليعاً في الفقه خبيراً بأحكامه . فلم يكن يكفي

ان يكون اتخذ العمل الاداري مهنة (شأن الوالي) معتمداً في ذلك على ذكائه وتدبيره وذلاقته : بل كان قبل كل شيء متعلماً بحاثة . ليس من حـــاجة الى التوكيد على السلطة الادبية التي كانت للقاضي بسبب واجباته القضائية : فاذا اجتمع له العلم الغزير بالشريعة وقدر وافر من الانصاف ، تيسر له ان ينشر الوفاق في المدينة . واما اذا لم يتفق له ذلك بدا عامل تصدع وتخاذل فيها . وانه لعبء ثقيل ان يعهد الى قاض واحد مدينة كان يقطنها ١٠٠,٠٠٠ نفس ، على المرجح . ومن ثم فقد كان يعين القاضي نائب او وكيـــل له معرفة وافية بأمور الزواج والطلاق. وعلى كل فلم يكن القاضي يقوم بأعمال القضاء فحسب : ذلك ان منصبه حتم عليه ادارة الاوقاف (الحبوس) التي يبدو انها كانت ضخمة عدداً منذ ايام بني مرين . ومن المسلم به ان الاوقاف كانت دينية من حيث غايتها . الا انه من الواضح في الاسلام ان المؤسسات الدينية لم يقصد منها احياء العبادة واقامة الابنية اللازمة لها فحسب ، ولا حتى الحفاظ على تنمية التعليم ، بل كان يقصد منها ما قد يطلق عليه اليوم الخدمات العامة كالمستشفيات وغالب الحمامات العامة وما الى ذلك . وباختصار فقد كانت هذه الاوقاف تزود المدينة بحصة كبيرة من وارداتها، وكان القاضي المشرف على مالية المدينة . وبهذه الصفة كان لديه وتحت تصرفه ادارة واسعة من الجباة والمراقبين والمحاسبين الذين كانوا يدبرون امر مبالغ كبيرة من المال . واخيراً بوصفه الممثل الرئيسي للشريعة كان عليه ان يشرف على الحياة العقلية

والتعليم ليتأكد من انه كان يتبع الطريق السوي . ويكاد يسمى شيخ القرويين . ومن السهل ان يرى الواحد أهمية هذا الدور حين يقوم به شخص واحد يتولى عدة مناصب : القاضي ، والرجل المسؤول عن مالية المدينة ، وشيخ القرويين ، والمراقب للحياة الفكرية . ولعلّه كان من الممكن ان يدور بخلده ان يفيد من هذه كلها لولا انه كان من اهل العلم وخادماً مخلصاً للشريعة ، ولولا انه ، فضلاً عن ذلك ، كان تحت نفوذ السلطان المطلق ، شأنه في ذلك شأن غيره من الموظفين . وليس ثمة في تاريخ بني مرين خبر واحد عن قاض حاول ان يستغل نفوذه ليقوم بدور اكبر من الدور المرسوم له .

والموظف الثالث ، وهو المحتسب ، كان شيئاً غريباً اذ كان ، في الوقت ذاته ، يشبه مراقب الآداب الروماني وصاحب السوق اليوناني . كان ، مثله في ذلك مثل القاضي ، يعمل في خدمة الشرع ، الا ان مجاله كان اقرب الى الناحية العملية ، اذ كان عليه ان يطبق مكارم الاخلاق الاسلامية في الحياة اليومية للمدينة . فكأنه صاحب شرطة الآداب ، وبهذه الصفة كان يتوجب عليه ان يراقب الحمامات العامة والمومسات ، الا ان دوره الرئيسي كان الاشراف على صحة البيع والشراء ، وبهذا كان يشرف على الحياة الاقتصادية اشرافاً كبيراً . كان عليه ان يراقب الموازين والمكاييل ، وقد ثبت في جدار القيسارية ذراعاً قياسية كانت تستعمل للمقاييس . ومن المؤكد انه كان عنده موازين قياسية ،

لكنها لم يعثر عليها . وكان عليه ان يتأكد من صحة المـــواد المعروضة للبيع ، سواء في ذلك المآكل والاشياء التي ينتجها صناع فاس . وكل من وجد وهو يغش كان يتعرض للعقاب ، وستوضح التفاصيل فيما بعـــد . واخيراً فانه كان يفصل في الخلافات التي تقوم في منظمات الصناع او التجار (ولو ان هذه النقطـــة الاخيرة لا يمكن التثبت منها) . وكان يتدخل في الخصومات بين المستخدمين والعمال او بين صاحِبَي عمل او حتى بين البائع وزبونه . وفي سبيل تمكينه من قض هذه الخلافات كان يتوفر له دوماً اصحاب خبرة ممن يمثلون العمل المعين يختارون على نحو سيتضح فيما بعد . وانه من نافل القول أن يشار الى ان المحتسب كان يجب ان يكون ضليعاً في احكام الشرع ، الا انه كان عليه ان يعرف ما اصطلحت عليه فاس وهو امر لا يقل أهمية عن الشريعة . ومن ثم فقد كان من الضروري ان يكون المحتسب من اسرةٍ قديمةِ عهدٍ بسكنى المدينة وان يكون صاحب خلق لا يرقى اليه الشك . وكان له اعوان يساعدونه في القيام بواجباته ، لكن عددهم كان محدوداً : فان مسؤولية منصبه كانت تقع على كاهله .

هؤلاء الموظفون الثلاثة واعوانهم كانت تتكون منهم ادارة المدينة . وقد كانوا مبدئياً خاضعين للسلطان او وزرائه فقط، ولم يكن عليهم ان يقدموا حساباً لسواهم . على ان هذا لم يكن

ينطبق على الواقع . ذلك بانه اذا كان التنظيم الاداري للبلاد الاسلامية في العصور الوسطى يقوم اصلا على مبدأ السلطة ، فقد كان يتوجب الاخذ بمبدأ آخر اصلي في العدالة الاسلامية العامة : وهو واجب المسؤولين في التوصل الى جميع الحقائق قبل اتخاذ قرار ما . هذا الواجب الخاص المعروف بالمشورة لم يوضع له تشريع خاص الا انه كان يتبع عملياً . ومثل ذلك يقال في السلطان الذي كان عادة يستطلع رأي العلماء فيما جل من شؤون الدولة ، كي يستوثق من صحة احكامه ، وكان يستشير الاعيان ليستطيع تحديد رد الفعل عند عامة الشعب . ومثل ذلك كان على القاضي ، وحتى على الوالي والمحتسب بدرجة اكبر ، ان يغتنموا الفرصة ويوفوا واجبهم حقه في استشارة اهل المعرفة في الامور التي يقع اليهم النظر فيها . وقد ذكر قبلاً ان المحتسب كان يحيط نفسه بجماعـــة من اهل الخبرة كي يتمكن من فض الخصومات المعروضة عليه . فمن المؤكد القول بانه لم يحدد اسعار الحاجيات الرئيسية دون الرجوع الى اصحاب المعرفة والرأي . والقاضي نفسه عندما كان يراقب الحياة الفكرية في المدينة ، كان لا بد له من الرجوع الى آراء كبار العلماء في جامع القرويين. واخيراً فان الوالي كان دائم الاتصال بالسكان بوساطة رؤساء الاحياء .

فقد كانت فاس في الواقع مقسمة الى عدد من الاحياء ، لكننا لا نعرف تفصيلاً لهذا التقسيم في ايام المرينيين . ولكن قد

يستنتج انها لم تكن تختلف كثيراً عما كانت عليه في القرن التاسع عشر : ففي ذلك الوقت كانت المدينة القديمة مقسمة الى ثمانية عشر حياً : اثنا عشر منها في عدوة القرويين وستة في عدوة الاندلس . ومهما يكن من امر ، فان الاحياء وجدت ايام بني مرين ، بقطع النظر عن عددها وحدودها . وقد كان لكل منها رئيس يختاره الوالي بناء على توصية اصحاب النفوذ في الحي . ولذلك فقد كان رئيس الحي في الوقت ذاته يمثـــل الادارة المركزية ، اذ انها هي التي كانت تعينه ، كما كان يمثل اولئك الذين يوكل اليه امرهم لانهم هم الذين اقترحوا اسمه . لم يكن في واقع الامر ممثلاً منتخباً لسكان حيه بالمعنى الحديث للكلمة : فلم يكن يصل الى منصبه على اكتاف الاكثرية . ان اسمه كان يقترحه اعيان الحي بعد اتفاق فيما بينهم يكاد يصل عادة الى الاجماع . فالواقع ان قانون الاغلبية القاسي لم يكن يطبق . وكان المألوف يومها ان تبحث المسائل بحيث تتباين الآراء وتختلف ، ولكن بسبب الجدل الطويل تفقد الخلافات حدتها ويحل محلها وفاق يقبل به الجميع عادة . فرئيس الحي الذي يقترح بهذا الشكل يكون موقفه دقيقاً جداً ، لانه يكون في الوقت ذاته رجل الحكومة لانها عينته ، ورجل المتنفذين في الحي الذين اقترحوه . هذه العلاقة المزدوجة وضعته في دور الوسيط على خير ما يتفق مع مقتضيات الشرع العام في الحياة الاسلامية العامة . فكان يقضي الكثير من وقته مع السلطات الحكومية لتفهم وجهات نظرها ولنقل اراء الاعيان في حيه الى

تلك السلطات . ثم كان ينتقل ليعرّف الاعيان بنوايا السلطات وليطلع على وجهات نظرهم محاولاً حملهم على الموافقة على الرغبات الرسمية . وكان يوفق في محاولاته في غالب الحالات ، الامر الذي يعتبر الهدف الاول في السياسة ، على الاقل في البلاد الاسلامية . ومن سوء الحظ اننا لا نملك المعلومات الدقيقة عن رؤساء الاحياء في فاس في عصر بني مرين . وليس ثمة ما يحملنا على الجزم بانهم كانوا ينتمون الى فئة الاعيان الذين ستوصف حالهم قريباً . واذا صح الفرض بان التقاليد السياسية لم تتغير في فاس كثيراً عبر القرون ، فانه من المؤكد تقريباً ان رؤساء الاحياء لم يكونوا يعتبرون ، في نظر الشعب ، في عداد اصحاب النفوذ . فبسبب الدور الصعب الذي كان رؤساء الاحياء يقومون به ، فقد كان البارزون من الاعيان يخشون ان يجدوا انفسهم في حالات مزعجة لا تكون فيها مكانتهم الاجتماعية فحسب معرضة للخطر ، بل وثروتهم احياناً . ومن ثم فقد كانوا يفضلون ان يتركوا مثل هذه المناصب لمن يمكن ان تكون خسارتهم اقل . ولم يكن هذا يعني ان رؤساء الاحياء كانوا من اصل وضيع ، فقد كان عملهم يقتضي ، بالضد من ذلك ، صفات خاصة من الروية والمهارة والخبرة والشجاعة احياناً . لكنهم كانوا من اولئك الذين لم ينتموا الى العائلات العريقة في المدينة . انما بسبب العمل الذي كانوا يتولونه ، والنجاح الذي يحرزونه فيه ، كانت تتاح لهم الفرصة ليتبوأوا مكانهم بين المقدمين من اصحاب النفوذ .

ولم تكن الوجاهة فكرة ذات معنى قانوني وضعي ، بـل كانت ذات معنى عملي واقعي ، متقلبة ومبهمة مثـــل الحياة نفسها ، فقد كان رؤوس الاسر القديمة والمحترمة بين اصحاب النفوذ في الحي ، وكان للأسر الثرية مكانتها هناك ايضاً ، الا ان العلم – اي معرفة الشريعة الغراء والثقافة العربية الاسلامية – كان له مكانة كبيرة . كما ان اولئك الذين يفصحون عن انفسهم في المجتمعات والذين كانوا يجيدون الابانة عن آرائهم ويفرضونها ، كانوا يحسبون في عداد اصحاب النفوذ. واخيراً فان اهل التقوى، الذين كانوا على شيء معقول من التصوف ، كان لهم ان يلقوا بدلوهم بين دلاء اصحاب النفوذ . ويبدو من هذا التعداد ان الاعيان في حي من الاحياء كان يمكن ان يكونوا كثراً ، وانهم نبتوا من أصول مختلفة . وكانوا يمثلون ، في الوقت ذاته، المصالح الاقتصادية والقيم الفكرية والدينية وأهمية التقليد ، هذا الى صفات خاصة مستقلة عن ذلك كله . ومع اننا لا نملك المعلومات التفصيلية عن الحياة اليومية في فاس في القرن الثامن/ الرابع عشر ، فانه من اليسير الاستنتاج ، دون تجن على الحقيقة ، بأن كل حي كان يستأثر بتكوين الرأي العام فيه خمسة اشخاص او ستة من اصحاب النفوذ القائم على اعتبارات مختلفة ، وان رئيس الحي كان يتوجب عليه ان يحسب حساب هؤلاء الاشخاص فقط . وعلى كل حال فان الامر الهام هو مدى تأثير مثل هذا الرأي ، في واقع الامر ، على اولئك المسؤولين عن ادارة المدينة . واذا كانت القضية تتعلق بأمور خطيرة بحيث تتخطى حـــدود

الاحياء ، وتعنى بها المدينة بكاملها ، فان الوالي كان يتصل مباشرة بأعيان المدينة، وعندها كان الوالي يواجه رجال الاحياء البارزين الذين كانوا يجتمعون اليه للبحث في القضايا المعروضة . ويجب ان يكون واضحاً ان شيئاً من هذا لم يرد بشأنه نص شرعي : فمجالس الاعيان التي كانت تضم افراداً من انحـــاء المدينة كافة لم يكن لها شخصية رسمية، فلا اجتماعات في اوقات معينة ولا كان لها اعضاء معروفون منتظمون . والمفروض ان المناسبة هي التي كانت تعين الرجال الذين يكون لهم الكلام ، فهم حيناً من اهل العلم ، واحياناً من رجال المال والاعمال، وفي اوقات اخرى يكونون من الاسر العريقة في المدينة . وبما ان هذا النظام كان يقوم على أسس عملية ترتبط بالظروف الراهنة ، فانه يختلف عن المنظمات الديمقراطية المعاصرة . ومع ذلك فقد ترتب عليه قيام رقابة دائمـــة على اصحاب السلطان يتناوب الاشراف عليها رجال هم خير من يمثل المدينة .

كان اصحاب السلطة هؤلاء يساعدهم في اعمالهم اليومية فئة من الموظفين العاملين في الخدمات العامة . ويجب ان يكون من الواضح ان هؤلاء الموظفين كانوا ، مثل موظفينا ، تحت تصرف الجمهور الا انهم لم يكونوا ، الا فيما ندر، منظمين تنظيماً جماعياً، بعكس ما ينظم موظفونا في حالات عديدة . وغالباً ما كانوا افراداً يقومون بأعمالهم تحت اشراف السلطات لخدمة الجمهور .

لعلّ اهم الخدمات العامة في مدينة مثل مدينة فاس كانت

تلك المتعلقة بالمياه . لقد ذكر من قبل ان المدينة القديمة كانت تتمتع ، بالنسبة للعصر ، بنظام فريد لتوزيع المياه وتصريفها . ومثل هذا النظام كان بحاجة الى صيانة مستمرة ، والا كان يفقد قيمته . وكان في مقدمة هذه الامور الحفاظ على القني المكشوفة بحيث تظل صالحة للعمل ، وهي القني التي كانت تنقل المياه مباشرة من النهر الى مختلف الاحياء . فكان يجب ان تنظف بمواعيد معينة ، خاصة بعد سقوط الامطار الغزيرة ، اذ كان النهر يحمل معه كميات من فضلات المعادن والخضار وحتى الحيوان . يضاف الى ذلك ان قوة اندفاع المـــاء كثيراً ما كانت تحدث ثغراً في ضفاف القني وتستدعي القيام بأعمال الاصلاح والترميم . وكان لكل حي الحق في قدر معيّن من الماء يتم التحكم فيه بموزع خاص . وكان من اللازم ان تفحص هذه الموزعات فحصاً منظماً حتى يصل لكل حقه . ومتى وصلت المياه الى الاحياء او الاماكن الخاصة كانت تحملها عندئذ قني تسير تحت الارض ، هي من صنع خزّافي فاس ، وكانت المياه تسير بقوة الجاذبية ، اذ ان الانحدار في الارض كان ييسر ذلك. وكانت مياه المجاري تنحدر بشكل مماثل الى النهر او الى اقرب نقطة من مخرج النهر من المدينة .

لا يعرف متى تم التوزيع الاول للمياه ولا كيف تم . ولعله يعود الى ايام المرابطين ، او قد تكون اصوله اقدم عهداً . وهو على كل توزيع دقيق ، ولا شك في انه كان يثير الكثير من الخلافات . اننا لا نملك اية معلومات عن سبل الحفاظ على نظام توزيع المياه لما قبل القرن الثاني عشر / الثامن عشر ، لكن ثمة ما

يدعو الى القول بان هذا النظام الذي كان معروفاً في ذلك الوقت انما هو اقدم من ذلك بكثير وبأنه كان متبعاً في ايام بني مرين .
وكان يشرف عليه نوعان من التقنيين : عمال مهرة كان باستطاعتهم الاهتداء الى اي عطل غير منتظر واصلاحه مع القيام بكل ذلك بسرعة متناهية ، وخبراء في حقوق المياه يعرفون عادات فاس معرفة لا يرقى اليها الشك وما يتبع ذلك من انتقال الحقوق بسبب البيع والشراء وخاصة بسبب تقسيم الملك ، الامر الذي لم يكن عنه غناء .

غالباً ما كان خبراء الحقوق المائية من الفقهاء المعروفين الذين كانت لهم مهن اخرى ولم يعطوا لقضايا المياه سوى جزء من وقتهم ، لكن خبراء القني كانوا ، من الناحية الثانية ، جماعة تعمل باستمرار ، اي تقوم بالخدمة الدائمة . ومع انه ليس لدينا اية معلومات دقيقة حول الموضوع ، فمن المحتمل ان هؤلاء كانوا يتقاضون مرتبات ثابتة من الاوقاف . وفي حالة قيامهم باصلاح قني او ما الى ذلك فانهم كانوا يتقاضون اجراً على ذلك من الذين يفيدون من خدماتهم ، سواء أكان هؤلاء افراداً ام مؤسسات دينية وهي التي كانت تشرف على عدد من السبل ورافعات المياه للمساجد والحمامات العامة .

وعلى اتساع نظام توزيع المياه ، فانه لم يكن يلبي الحاجات كلها . فقد كانت ثمة اقسام خاصة مرتفعة بحيث لا يمكن للمياه ان تصل اليها بالقني . ومن ثم فقد كان في فاس ، كما كان في

غيرها من مدن العصور الوسطى ، سقاة يحملون الماء الى البيوت التي لا تصلها القني ، كما كانوا يقدمون الماء الى المارة في الاماكن العامة لارواء عطشهم . وكانوا يكثرون التنقل في الاسواق والمزارات وحيث يجلس القصاصون وحيث ينشر التجـــار بضائعهم . وكانوا يحملون الماء على ظهورهم في قربة مصنوعة من جلد الماعز مخيطة خياطة جيدة ، وقد احتفظ بالشعر على الجلد . وكان السقاة يصبون الماء للزبائن في اكواب يحملونها في احزمتهم . وكان الجرس الذي يقرعونه ، للفت النظر الى وجودهم ، تتمة عدتهم . اما في حالة تزويد المساكن بالمياه فقد كانوا يحملونها في براميل من الخشب ويحملونها على ظهور الحمير . وكانوا يتلقون اجرهم من الزبائن ، بينما كان على المحتسب ان يتأكد من امانتهم ونظافتهم . وكان هؤلاء السقاة يعملون في اخماد نيران الحرائق ، اذ لا يبدو انـــه كان في فاس فرقة من رجال المطافىء . فاذا شب حريق في مكان اسرع السقاة بقربهم وبراميلهم واعانهم في ذلك كل من كان عنده وعاء يستحق الذكر ، وخاصة العـــمال في الصباغة والدباغة ، الذين كانت حرفتهم تحملهم على الاحتفاظ باوعية مليئة بالمياه بحيث تكون في متناول اليد . وبطبيعة الحال فقد كان جميع الموجودين في الجوار يقدمون العون عملا بمبدأ المعاملة بالمثل . ففي هذه المدينة التي كانت تعتمد على الاخشاب في بناء بيوتها ، وعلى مواقد فحم الحطب المفتوحة في الطبخ ، وحيث تهب الرياح المحرقة الجافة ويشتد الحر في الصيف ، كانت النيران مصدر خوف كبير

وكانت ، في بعض الاحيان ، تنتشر انتشاراً واسعاً ، وخاصة في الاسواق والمخازن حيث تتجمع المتاجر المكدسة فتصبح وقوداً لها . ولهذا كان العسس يناموون في الاسواق : وكان من واجبهم الحيلولة دون اندلاع النيران ، ومنع السرقة ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

كان الماء المادة الخام الرئيسية للحمامات العامة ، وكانت هذه تقوم في مختلف احياء المدينة ، وكان ثمة عدد منها في الاحياء المزدحمة بالسكان ، هذا دون ذكر الحمامات الخاصة التي كانت توجد في المساكن الفخمة . وكانت الحمامات العامة جميعها تقريباً مما شيدته ادارة الاوقاف . وكان المقاولون يضمنونها من هذه الادارة لقاء مبالغ يتفق عليها . وكان المترددون على الحمامات على نوعين . اولهما الافراد الذين كانوا يذهبـون للاستحمام لقاء جعل معروف ، وقد كان يختلف باختلاف الحمام ، اذ كان ثمة الحمامات الفخمة وتلك التي هي على درجة اقل . وكانت الحمامات تفتح قبل الظهر للرجال وبعد الظهر للسيدات ، على ان تفصل بين الفترتين ساعتان او ثلاث ساعات بحيث يمكن تنظيف المكان وملء الحلل بالماء . فاذا حان موعد ذهاب النساء وضع حبل على المدخل اشارة الى ان الرجال قد انتهى وقتهم . اما النوع الثاني من رواد الحمامات فهو الاسر التي كانت تستأجر الحمام ليلة ، وهو في الغالب لامر خاص كتحميم عروس او ام حديثة عهد بالوضع . وفي هذه الحالة كان الجعل يختلف باختلاف عدد

المشتركين وأهمية المناسبة . وعلى كل فلم يكن الحمام للاغتسال فقط ، بل كان له منزلة دينية لان الزبائن كانوا يتطهرون فيه ، وكانت له مكانة اجتماعية لان بعض الطقوس العائلية كانت تتم فيه . ومن ثم فلم يكن بــد من مراقبة هذه الامكنة مراقبة دقيقة ، بحيث تكون دوماً صالحة للاستعمال ، وبحيث يحافظ فيها على الآداب العامة . ولهذا السبب كان للمحتسب الاشراف على الحمامات . وهذه الامكنة كانت تشبه حمامات العصور القديمة . فكان في كل منهـا غرفة لخلع الثياب ، وغرفة باردة ، ثم غرفة فاترة ، ثم غرفة حارة ، واخيراً غرفة هادئة للراحة ، فيها يرتدي الزبائن ثيابهم ثانية ، ويستلقون مستريحين من عناء الحمام ، او يسلمون انفسهم للمدلكين او يتقدمون الى الحلاقين لقص شعورهم او حلق لحاهم . وكانت هذه الغرف ضعيفة النور ، بحيث يسود فيها الاحتشام .

وكان تنظيم الخدمات المتعلقة بالمجارير من الامور المرتبطة باستعمال المياه . وكان التخلص من فضلات البيوت اول ما تعنى به هذه الخدمات . ويبدو انه حتى القرن الثالث عشر / التاسع عشر لم تكن ثمة اشارة الى وسيلة لجمـع الاقذار من الشوارع والتخلص منها على ما يجدر ان تكون عليه مدينة كبيرة . وزوار فاس في ذلك القرن يتسابقون في وصف قذارة الشوارع . وقد تعرض للسائل امور كثيرة ، لكنها تظل كلها بدون جواب . لا نعرف فيما اذا كان هناك خدمة خاصة لازالة

الفضلات وكيف كانت تعمل ، ام ان الافراد كانوا مكلفين بالقيام بالترتيب اللازم لازالة هذه الفضلات . وفي هذه الحالة يكون اولئك الذين يسكنون على مقربة من النهر اسعد حظاً من غيرهم : فما كان عليهم الا ان يطرحوا الفضلات في الماء . اما الآخرون فقد كانوا يحملونها او يكلفون من يحملها الى المزبلة التي تقوم خارج اقرب باب من ابواب المدينة اليهم .

الا ان القذارة في الشوارع كانت ترجـــع ، بالاضافة الى فضلات البيوت ، الى روث الحيوان (وكانت الحيوانات التي تجول في فاس كثيرة العدد) والغبار والوحل . ولسنا ندري فيما اذا كانت الشوارع تغسل في ايام بني مرين على نحـــو ما شاهدها الرحالون في القرن الماضي : فقد كان الوالي يصدر امره ، الفينة بعد الفينة ، بأن تفتح احدى القني الى احد الشوارع الرئيسية فتتدفق المياه جرياً وراء الانحدار الشديد الى النهر حاملة معها كل ما تصادفه في طريقها — الاقذار ومعها الاشياء التي قد تكون على حافة الشارع .

من الطبيعي انه كان ثمـــة شرطة تأتمر بأمر والي المدينة ورؤساء الاحياء . ويؤكد ليو الافريقي (الحسن الوزان) انه كان في فاس وحـــدها اربعة اصحاب شرطة وكانوا يعسون بالليل . وقد يستنتج انهم كان لهم نواب ، ولكن هؤلاء كانوا قلة .

من المرجح ، كما كانت الحال بعد ذلك بقرون ، ان الاجرام كان نادراً في فاس – لا لأن السكان كانوا اكثر تمسكاً بالفضيلة منهم في اماكن اخرى ، ولكن ، بسبب استقرار السكان ، كانت الحياة في الاحياء المحلية منظمة ، وكان الجميع يعرفون بعضهم بعضاً ، وكان كل منهم يعرف عادات الافراد الآخرين ، لذلك كان من الصعب ان يخرج اي من السكان عن سواء السبيل. فكان الشرطة اذن يعنون بالحفاظ على النظام والأمن وفض الخصومات بين الجيران ، وقبل ذلك كله كانوا يراقبون أبواب المدينة وتحصيناتها ، بحيث يحولون دون تسرب المشبوهين والمجهولين الى المدينة ، اذ ان الخطر ما كان يدهم المدينة الا من جهة واحدة – الخارج . وكان على نواب رؤساء الاحياء ، اذا جن الظلام ، ان يغلقوا الابواب التي تفصل الاحياء بعضها عن البعض الآخر ولا يفتحوها حتى مطلع الفجر ، وان يعسوا في الشوارع المظلمة والمقفرة .

كان في فاس سجن للدولة ، وكان يقوم في ابراج باب السباع القوية ، على مقربة من قصر فاس الجديد . وقد سجن فيه ، في القرن التاسع / الخامس عشر ، ابن ملك البرتغال سنوات عديدة بانتظار تحريره ، الأمر الذي لم يتم ، فمات فيه . الا ان هذا المكان ما كان يسجن فيه الا المرموقون من الناس . وكان للمدينة القديمة سجن ، بل لعله كان لها سجنان – الواحد للرجال والآخر للنساء . كانا يقومان على مقربة من مقر الوالي ، وتقول الرواية بأنها كانا يتسعان لنحو ثلاثة آلاف سجين .

والتفكير بالسجن ، بالنسبة الى فـــاس ، يثير التفكير بالمستشفى (المارستان) ، اذ كان فيها على الاقل مستشفى واحد بني ، او لعله رمم ، في ايام بني مرين . وحري بالذكر ان معنى مستشفى كان يختلف ، في فاس القرن الثامن / الرابع عشر ، اختلافاً بيناً عن معناه الحديث. ففي ذلك الزمن لم يكن المريض يذهب الى المستشفى : كان يعنى بالمريض في البيت ، وكانت اسرته ترى معرة في ان يرسل احد افرادها الى المستشفى بسبب مرضه . فكان يؤم المستشفى اذن المرضى الذين لم يكن لهم من يعنى بهم — وكان هؤلاء نادرين — او المرضى الذين لم يكن بالامكان الاحتفاظ بهم في البيت — اولئك المصابون بامراض عقلية خطرة . ويتضح حالاً لماذا كانت فكرة السجن مرتبطة بفكرة المستشفى . ومستشفى فاس ، الذي كان يطلق عليه اسم سيدي فريج ، كان يتألف من غرف صغيرة تدور بعرصة . وكانت سلاسل الحديد تتدلى من اعلى السطح الى كل من هذه الغرف ، ويربط بها هؤلاء المرضى المساكين ليظلوا هادئين . وقد كانوا ، في اول الامر على الاقل ، وهم يتمتعون بعد بشيء من قوتهم ، يقضون بعض الوقت في الصراخ والعويل . وكان هؤلاء المرضى ، على ما رواه ليو الافريقي (الحسن الوزان) في اوائل القرن العاشر / السادس عشر ، الذي كان كاتباً هناك لمدة سنتين ، يعيشون في حالة من القذارة الشديدة ، بالرغم من العدد الكبير من الموظفين الذين كانوا يشرفون عليهم :

فقد كان المرضى من المتوهين الذين يثبطون اشد العزائم ويضعفون اشد الهمم .

وكان مستشفى الجذام ، القائم خارج الاسوار ، نوعاً من السجن ايضاً ، الا انه كان اقل قسوة . وليس ثمة شيء مؤكد نعرفه عنه .

يظل علينا ان نفحص الخدمات التي كانت تؤمن الاتصال داخل فاس : واولها المنادون . بالطبع كان السلطان والوالي يأمران بقراءة البيانات اثناء الصلاة يوم الجمعة ، التي كان يحضرها عدد كبير من الرجال . وهذه الوسيلة كان يلجأ اليها دوماً عندما تكون البيانات طويلة . لكن كان ثمة اوقات ترى فيه السلطات وجوب اعلان امر معين قصير وبشيء من السرعة . في هذه الحالة كانوا يلجأون الى المنادين العامين . وكان لهؤلاء صناعات اخرى يقومون بها ، اذ ان المناداة نفسها لم تكن لتقوم بأودهم . واذا صح ما روي عنهم فيما بعد فان عدداً لا بأس به منهم كانوا يستخدمون في دفن الموتى ، وهو عمل آخر لا يملأ ايام الناس بالعمل ، او لعلهم كانوا يبيعون بالمزاد العلني . وقد كان لاحدهم مكتب (حانوت) على مقربة من مستشفى سيدي فريج ، بحيث يكاد يتوسط المدينة ، وكان يمكن العثور عليه هناك في كل ساعة من ساعات النهار ، سواء أكانت القضية دفن ميت ام رسالة يجب ان تعلن للجمهور . وفي هذه الحالة كان جميع المنادين يدعون حالاً : فكانوا يتعلمــــون نص الرسالة

ويحفظونه غيباً وينتشرون في انحاء المدينة، حسب خطة معروفة من قبل ، ويتوقفون في نقاط متفق عليها اصلاً ، في الاماكن التي يزدحم فيها الناس ، بحيث يصل مضمونها الى اكبر عدد من السكان .

الا ان نشر الاخبار لم يكن الضرورة الوحيدة ، فقد كان ثمة الاشياء والمتاجر التي يجب ان تنقل من مكان الى آخر وكان هذا عمل الحمالين والحمارين . وقد ذكرنا من قبل ان الحمالين او الزرزاية كانوا من البربر . وكانوا ، وعددهم نحو ثلاثمائة ، يهبطون مدينة فاس من قبائل أواسط وادي مولوية او من وادي قوير الاعلى . ويرجع وجودهم في فاس الى ايام انشائها او يكاد . وقد انشأوا ، منذ القرن العاشر/السادس عشر ، بل من المؤكد قبل ذلك ، هيئة خاصة بهم ، بسبب الروابط القبلية والعائلية التي كانت تربط بينهم. وكانوا يضعون اجورهم في صندوق واحد، ويقتسمون المبلغ فيما بينهم في نهاية كل اسبوع. ورغبة منهم في تلبية الطلبات كل وقت فقد كانوا موزعين في عدد من النقاط الهامة ، على نحو ما تتوزع سيارات الاجرة الآن ، وهي نقاط تختلف في الاهمية بالنسبة الى الموقع . وقد كانت هذه النقاط نحو خمس عشرة نقطة في مطلع القرن الحالي ، وكلها في عدوة القرويين ، وفي الغالب حول وسط المدينة . وبسبب ان هذا التنظيم كان قديماً ، وكانت له تقاليد متينة ، فقد يستنتج من ذلك انه كان في القرن الثامن / الرابع عشر

على الصورة التي بها وصفناه او ما يشبه ذلك كثيراً . وكان الحمّالون على استعداد لنقل انواع الاحمال المختلفة ، وقد تكون ثقيلة جداً ، وكانت عدتهم في ذلك الاكياس ، حماية لثيابهم ، والحبال لضبطها . وقد يشاهدون متنقلين دون احمال قط : وعندها يكونون يبلغون رسالة او ينقلون خبراً اذ انهم كانوا حمّالين ومراسلين معاً . وقد كانوا يلجأون ، اذا تجاوز ثقل الحمل مقدرتهم ، الى استئجار بغل او حمار ، لحمله . وعلى كل فقد كان نقل المتاجر على الدواب من عمل « سائقي الحمير » مع انهم كثيراً ما كانوا يستعملون الخيل والبغال .

وكان ثمة بعض من المقاولين الذين كانوا يملكون بعض دواب النقل وكانوا يؤجرونها لنقل مختلف انواع المتاجر : كألواح او جوائز من خشب الارز او الزيتون مما يستعمله النجارون او البناءون ، واحمال من الرمل او الآجر مما يستعمل في اقامة الابنية ، واكياس من القمح او الصوف ، وما الى ذلك . لذلك فقد تقع العين على قافلة مكونة من خمسة او ستة حمير تسير خلف سائق متراخ وهي تخترق شوارع المدينة . اما البغال والخيل فقد كان لكل واحد منها سائقه الذي كان يقوده بالرسن او يوازن على ظهره حملاً ثقيلاً قد يصعب الاحتفاظ به . وقد تشهد شوارع المدينة عرقلة في السير اذا تقابلت قافلتان محملتان ، فلا يمكن لأي منها التقدم في السير حتى يفرغ السائقون ، واحياناً حتى بقية الموجودين ، من العتاب . وما كان لفاس ان تسير

فيهـــا حياتها اليومية سيراً طبيعياً لولا هذه الفئة من الحمالين والسائقين ، كما ان المدينة الحديثة قد تعترضها صعوبة كبيرة في تسيير الامور لولا سيارات النقل ووسائل المواصلات الحديثة .

يمكن القول بان ادارة الاوقاف وترتيب الموثقين كادا يكونان مؤسستين من مؤسسات الخدمة العامة . فالاملاك التي كانت توقف على المؤسسات الدينية كانت كبيرة الاهمية — فقد كانت تشمل عقارات في المدينة كالحمامات العامة وعدد كبير من الحوانيت والمخازن والبيوت الخاصة ، وكذلك الاراضي الواقعة في الريف ، وقد تبعد عن فاس كثيراً . وكان من الضروري ادارة هذه الاملاك كلها — سواء من حيث تأجيرها او تصنيفها للايجار او اصلاح العطب الذي يصيبها او جمـــع الايجار او الاقساط المستحقة عليه ، او دفع النفقات اللازمة لسير العمل او الاحتفاظ بالقيود الخاصة بالحسابات المتعلقة بهذه الاعمال كلها . وقد روى ليو الافريقي (الحسن الوزان) انه كان ثمة ، في اوائل القرن العاشر / السادس عشر ، خمسة وثلاثون شخصاً يقومون بهذه الاعمال المختلفة ، وهذا ولا شك هو الحد الادنى . وقد كان يدير هؤلاء الموظفين مدير تحت اشراف القاضي ، وقد كانت مسؤولية المدير كبيرة جداً ولذا كان يتقاضى مرتباً عالياً نسبياً . وقد كانت الاوقاف مقسمة الى بضعة اقسام ، كل وما عين له. وكان اكبرها الاملاك الموقوفة على جامع القرويين ، ويلي ذلك الاملاك الموقوفة على القيام بامور المستشفيات ، وفاس

الجديد ومصالح اخرى مختلفة ، وكان كبار الموظفين في هذه الادارة من العلمـــاء ، وكانوا يحسبون في عداد اهل الطبقة الوسطى في المدينة .

اما الموثقون فقد كانوا اعوانـــاً للقاضي وكانوا المكلفين بالاشراف على سير الدعاوى . ولم يكن من الممكن الاستغناء عن وساطتهم في الغالب من الاحكام القضائية سواء في ذلك الشؤون الخاصة والحياة العامة . وقد بلغ عددهم ، في مطلع القرن العاشر / السادس عشر ، نحو ١٦٠ ، وهذا الرقم ما كان ليختلف عن رقم القرن الثامن / الرابع عشر . كان بعض هؤلاء الموثقين متنقلين ، بمعنى انهم كانوا يتنقلون الى اماكن مختلفة لصياغة العقود اللازمـــة ، الا ان اغلبيتهم كانوا يجلسون في الحوانيت القائمة على جانب من جوانب جامع القرويين . هناك كان يأتيهم اهل الحاجات فيصوغون لهم العقود اللازمة . وجميع هؤلاء الموثقين كانوا بطبيعة الحال من اهل العلم الذين تلقوه في فاس ، ولم تقتصر معرفتهم على الشريعة الغراء بل تعدتها الى معرفة العادات والتقاليد الخاصة ، وكانوا يعرفون الاسر الرئيسية في المدينة . وكـــاد الجميع يكونون من اهل فاس ، ومن الطبقة الوسطى ، ذلك بان اهل المدينة كانوا يعارضون في ائتمان اشخاص مجهولين او حديثي عهد بالمدينة على مصالحهم .

واخيراً يجب ان يضاف الى هذا الجدول القصير اولئـــك

المسؤولون عن الخدمات المالية ، اذ لم تكن الاوقاف المصدر الوحيد لواردات المدينـــة الضخمة : فأكثر المتاجر التي كانت تدخـــل المدينة كانت خاضعة لضريبة تختلف باختلاف المواد نفسها . وكان ثمة ضريبة على المواشي التي تؤخذ الى المسلخ . وكان يعهد بأمر هذه الضرائب جميعها الى موظف – او على الأصح الى ملتزم عام لها – فيدفع الى بيت مال المدينة مبلغاً معيناً يومياً ، بقطع النظر عما يجمعه هو من السوق ، وقد كان يقيم حراسه وكتّابه على الابواب ، وقد يرسل وكلاءه الى الطرق العامة على بعض المسافة من المدينة ، كي يحول دون الغش .

قد يرى القارىء الحديث بعض الغرابة في هذه الصفة البسيطة لتنظيم المجتمع : نفر ضئيل من الموظفين ، وعـــدد قليل من الادارات العامة فيها قلة من الافراد ، وليس ثمة ما يدل عـلى اسهام المواطنين في ادارة المدينة ، الا ما كان من الافادة من خبراء منظمات الصناعة ، واشراك اعيان الاحياء اشراكاً فعلياً في اختيار رؤساء الاحياء وفي بعض الحالات الضرورية حتى في عزلهم . كل هذا مدعاة للغرابة بالنسبة الى مدينـــة مزدحمة بالسكان ولها تاريخ يمتد الى بضعة قرون وتقطنها طبقة متوسطة مستقرة . وتفسير ذلك هو ان مدينة فاس كانت مدينة اسلامية . وفي القرن الثامن / الرابع عشر كانت المدن الاسلامية كلها تدار بهذا الشكل ، سواء أكانت في الاندلس ام في العراق . وفي هذه الناحية لم ينقل المسلمون شيئاً عن اليونان او الرومان الذين كان

من اهم خصائص حضارتهم التطـــور المستمر للحياة المدنية .
وحري بنا ان نؤكد ، من الناحية الاخرى ، ان هذا التنظيم
كان ، على ما يبدو لنا من بساطته ، دون شك يكفي اهل
فاس حاجاتهم . فالسكنى في فاس كانت مستقرة . وقـــد
ازداد عدد السكان في ايام المريتيين ، على ما تؤكده الضواحي
التي نشأت خارج الاسوار . الا انه لا يبدو ان هذه الزيادة جاءت
فجأة او انها كانت خطيرة . وثمة ما يدعو الى التساؤل عما اذا
كان استقرار بعض السكان في الضواحي يعود الى انعدام الاماكن
لهم داخل المدينة . فقد يرجع ذلك الى أن ثروتهم لم تمكنهم من
الاستقرار في الداخل، ولم يعد المجتمع الفاسي يد العون لهم . وقد
يكون معنى هذا وجود مجتمع مغلق على نفسه ، يعيش لنفسه
الى درجة كبيرة ، وفيه يعرف الافراد بعضهم بعضاً ، عـــلى
الاقل داخل الحي ذاته . ومن هذا يتضح ان الادارة ، وهي التي
لا غنى عنها عندما تكون الجماعة البشرية مجهولة الهوية ، تفقد
الكثير من مبرر وجودها : لا حاجة لموظفين لدعوة الافراد او
البحث عنهم ، اذ ان إخبار اي من سكان الحي يكفي لنقل
الرسالة الى صاحبها . ولا حاجة الى خدمات لتقديم العون
والهبات ، لان الشخص المريض او المعوز كان دوماً يحصل على
المعونة من اقاربه او اصـــدقائه ، اذ انهم كانوا يعتبرون ذلك
واجباً لا سبيل الى الجدل حوله . وباختصار فان مدينة مثل

فاس في القرن الثامن / الرابع عشر كان فيها جماعات اساسية صغيرة ، مثل الاسرة والمنظمات الصناعية ، وفي الحالات الماسة ، الجيران ، هي التي تقدم الى كل فرد العون الذي ينتظره الفرد الحديث من الادارة البلدية . كانت ثمة في الواقع حياة جماعية ، الا انها كانت مجزأة الى عدد كبير من الخلايا الأولية .

٤ الحياة اليومية

من الممكن التحدث عن بيوت فاس في ايام بني مرين لان عدداً منها لا يزال قائماً الى يوم الناس هذا . في ايام بني مرين ، كما هي الحال في ايامنا ، كان ثمة انماط مختلفة للبيوت ، وذلك تبعاً لثراء المالكين : والبيوت التي ظلت الى اليوم ليست افقر البيوت ولا ابسطها . فالبيوت التي نعرفها انما هي مساكن لاسر كانت على شيء من الثراء والنعمة . وعلى كل فلا يجب ان يغرب عن البال ان عدداً من هذه الاسر كان يسكن مدينة فاس ، ولذلك فنموذج البيت الذي نراه لم يكن شيئاً غير عادي .

كان للبيت جدار الى جهة الشارع ، ولم يكن في الجدار من المنافذ سوى بضع كوى تمكن الناظر من الداخل ان يرى ما يحدث في الشارع دون ان تعرضه لخطر الرؤية من الخارج ، وباب خشبي متين تغطيه زخارف من رؤوس المسامير الحديدية ومقرعة يعلن الزائر بضربها عن وجوده . فاذا انفتح الباب دخل المرء الى ممر ضيق منخفض السقف بحيث يستحيل ان يرى وهو على العتبة مـــا يدور في العرصة : وبذلك يتاح للنساء الوقت الكافي للاختفاء لمجرد ان يجتاز الباب غريب . وينتهي الممر

بعرصة مربعة في غالب الحالات ، ارضها من الرخام او الزليج الملون ، وقد يكون في وسطها بركة او نافورة ، والا فان الماء يتجمع في نافورة تقوم في الجدار الاصم من العرصة . والغالب على العرصات في واقع الامر ان يكون لثلاثة من جدرانها فقط منافذ الى الغرف ، اما الرابع فيكون جداراً اصم ويرجح ان يفصل البيت عن البيت المجاور . والجهات الثلاث الداخلية من البناء تتكون من ممرات تمكن الناس من الانتقال من غرفة الى اخرى دون ان يتعرضوا للبلل فيما اذا ساء الطقس . والغرف نفسها تتصل بهذه الممرات التي يوجد منها ثلاثة لكل طابق من البناء ، وكل منها يمتد على طول الجدار الداخلي . ويغلب على البيت ان يتألف من طـــابق ارضي وطابق آخر يعلوه وقد يكون فيه طابق ثالث ، اما اغلبية البيوت البسيطة فكانت تتألف من طابق ارضي فقط . وكانت الممرات هذه ترتكز على اعمدة ، يغلب عليها ان تكون مربعة ، وتكون القاعدة ، الى ارتفاع يقرب من المتر ، مزخرفة بالزليج الملون ، بينما يتسع الجزء الاعلى منها فيكون رأساً من الخشب المحفور او الجبس . وكانت رؤوس الاعمدة هذه تحمل وصيداً (اسكفة) من الخشب المحفور يدور على الجدران الثلاثة . فاذا كان للبيت طابق آخر فقط فان الممر في الطابق الثاني يرتكز الى جوائز من الخشب وقد تزخرف او قـــد يكتفى بمسحها جيداً . وكان عرض الممر يتوقف على قيمة المنزل ، فيتراوح لذلك من نحو المتر الى نحو المترين . وفي وسط كل ممر كان يقوم باب بارتفاع الممر نفسه

فيصل الى نحو اربعة امتار في المعدل ، ويقوم على جانبي الباب نافذتان متشابهتان تماماً ومن ثم فان النور يدخل الى الغرف من الباب والنافذتين . فاذا اتيح للبيت ان تكون له حديقة — وهو ترف ندر ان يتيسر الا للمنازل القائمة في الاطراف — فتحت في جدار الغرفة المقابل المدخل نافــذة او نافذتان تطلان على الحديقة . واذا بني البيت على منحدر شديد ، كما كان يغلب على بيوت فاس ، فان الجدار الفاصل قد لا يكون مرتفعاً جداً ، لان البيت المجاور يكون على مستوى ادنى ، ولذلك قد يُرى ، من ممر الطابق الثاني ، منظر للسطوح والتلال . ولكن في الاعم من الحالات كانت الغرف ، حتى غرف الطابق الثاني ، تطل على العرصة .

والبيت الذي يتكون من طابقين كان يحتوي على ست غرف ، ثلاث منها في كل من الطابقين . المطبخ والدرج والمحلات الخاصة كانت تقوم عادة في زاوية ، وهي اماكن مغلقة يصل اليها نور ضئيل من كوى صغيرة . كان طول الغرفة يتراوح ، في المعدل ، بين سبعة امتار وثمانية امتار ، وقلما كان عرضها يتجاوز الثلاثة امتار ، وذلك لان جوائز السقف الخشبية لا يمكن ان تكون غاية في الطول . وقد يقوم في وسط الجدار الخلفي للغرفة ، وفي مقابل الباب تماماً ، مخدع مبني من الآجر يزيد في عمق الغرفة في وسطها . وفي كل من الطرفين تقوم صفة من الحجر يكون جزؤها الادنى أجوف بحيث يستعمل خزانة . ويوضع الفراش

على الصفة . والارض مصنوعة من الزليج ، ويغلب ان تكون الاجزاء الدنيا من الجدران مغطاة بمثل ذلك . اما بقية الجدار فيكون مبيضاً بالكلس . وتكون الروافد ، في البيوت الفخمة، من الخشب المحفور او المدهون ، اما في غير ذلك من البيوت فتكون من الخشب الممسوح فقط . ويتكون الاثاث من الفرش المكسوة بالقماش المطرز والوسائد التي كانت تدور بالجدران ، وقد تكسى ارض الغرفة بالسجاد . ويتكون السطح من رفراف مبني فوق غرف الطابق الأعلى ومحاط بجدران مرتفعة . وقد يقوم بناء بسيط في زاوية هذا الرفراف : هو نوع من المرقب الذي يطل على زاوية من منظر فاس العام . وكان الرفراف يستعمل لنشر الغسيل وتجفيف الفواكه والخضار ، وهو ، قبل كل شيء ، مسرح النساء اللواتي كن يجلسن ليتمتعن بالهواء الطلق والشمس وليتحدثن مع النساء الاخريات في البيوت المجاورة . وقد يرى هناك سلم صغير ، بواسطته تتمكن النساء من اجتياز الجدار الفاصل وزيارة الجارات ، وبسبب ان الكثير من بيوت فاس كان يمتد عبر الازقة والشوارع، فقد كان بالامكان الانتقال بضع مئات من الامتار من رفراف الى رفراف اذا تمتعت السيدة ببعض النشاط في الحركة وكانت تعرف عدداً من الأسر لتزورها .

واذن فالبيت الفاسي كان فسحة مغلقة على نفسها وموجهة نحو العرصة ، والاتصال بالعالم الخارجي كان يتم اما عن طريق

الباب المؤدي الى الشارع او عن طريق الرفارف . وكان كل بيت تسكنه اسرة واحدة ، التي كان يختلف تكوينها بالطبع لكنه كان عادة يشمل رأس الاسرة وزوجته او زوجاته ، وأولاده المتزوجين منهم وغير المتزوجين ، بقدر ما تسمح به الغرف ، واحياناً قريبة او قريباً ، وخادماً او خادمين ، وقد يكون هناك بعض الرقيق احياناً ، بحسب الثروة التي يتمتع بها اهل البيت . ومن ناحية مبدئية كان لكل زوجين غرفة تحت تصرفها حيث ينام الأبوان وابناؤهما . والغرفة الكبرى في الطابق الارضي كانت قاعة الاستقبال ، لكن ذلك لم يكن يمنع من استعمالها غرفة نوم متى جن الظلام . فالبيت المكون من ست غرف كان بالامكان ان يقيم فيه نحو عشرين شخصاً . ولم تكن الأسر الفقيرة تتمتع بمنازل فخمة ، اذ كان افرادها يكتفون بغرفة او غرفتين وكانوا يقتسمون المسكن مع أسر اخرى : ومعنى هذا ان العرصة والرفراف والمطبخ والاماكن الخاصة كانت مشاعاً بين الجميع . هذا هو الاطار العام الذي كان اهل فاس يعيشون في نطاقه . اما المنازل الفخمة فقد يتألف احدها من مجموعة من غرف تدور حول عرصتين او اكثر ، يمكن الاتصال بينها اتصالاً مباشراً وسريعاً . وقد يكون لها حمام خاص . وكان عدد الخدم يتزايد بنسبة أهمية المسكن . وفي بعض الحالات كانت البيوت تقام حول حديقة داخلية حيث تنمو الزهور والاشجار المثمرة والسرو وشجر النخيل احياناً ، اما الاجنة فكانت تقوم على مستوى ادنى ، تحيط بها

ممرات مبلطة بالزليج . وعلى كل فمثل هذا البيت ما كان يوجد الا في الاحياء المتطرفة ، ولم يكن له مثيل في وسط المدينة .

ولم يكن جميع سكان فاس عائلات : فقد كان هناك رجال يعيشون منفردين - كالمسافرين او العمال الموسميين. وكان البعض يقيم مع الاصدقاء ، او ، بالنسبة للعمال ، حيث كانوا يشتغلون . وكان اشد المسافرين فقراً يجد مأوى في جامع او في حمى ولي . وثمة كثيرون كانوا يقصدون الانزال، التي كانت كثيرة في فاس في العصور الوسطى اذا صدقت رواية ليــــو الافريقي (الحسن الوزان) . فهو يصرح بانه كان في فاس مئة منها ، وبعضها كان فيه نحو ١٢٠ غرفة . وهذه كانت فنادق تقوم في وسط المدينة على مقربة من جامع القرويين . ويضيف بان ارباب الفنادق كان لهم منظمة كبيرة الاثر . كان من الممكن ان يأكل الواحد في الفندق ، على ان يقوم هو بنفسه بتجهيز طعامه واعداده ، اذ لم تكن تباع وجبات الطعام هناك . يضاف الى ذلك ان الاثاث كان بسيطاً جداً : فصاحب الفندق كان يقدم لزبائنه حصيراً وغطاء ، لا اكثر ولا اقل . واخيراً فقد كان ثمة مجال للتشكيك ببعض هذه الفنادق من حيث الاخلاق . وقد يتاجر بالخمر فيها ، وقد يلتقي فيها افراد من الجنسين يثيرون الريب حولهم . كان ثمة فرق واضح بين التمسك بالاخلاق والورع، الذي يدعو اليه اهل الطبقة الوسطى من المدينة ، وهذه الاماكن المثـــيرة للشبهات ، التي كان المترددون عليها ، في اكثر الحالات ، من الغرباء .

كان اهل فاس يتناولون عادة ثلاث وجبات في اليوم : كانت الاولى تأتي بعد صلاة الفجر وتتكون من خبز وفاكهة وثريد او عصيدة تزيد كثافتها في الشتاء عنها في الصيف ، والثانية كانت تعقب صلاة الظهر ، وتكون خفيفة في الشتاء وثقيلة في الصيف ، اذ تكون عندها الفترة بين الوجبتين الاولى والثانية اطول ، ويكون موعد الوجبة الثالثة بين صلاة المغرب والعشاء . كانت تستهلك كميات كبيرة من الخبز ، وهذا كان يعجن في البيت ويخبز في فرن الحي . او قد يستعاض عنه بالكسكس والسميذ المفتــــول حبات دقيقة والمطبوخ على البخار . وكان الحليب ومستخرجاته مثل القشطة والزبدة والجبنة مما يشكل جزءاً هاماً من الغذاء. وكان فلاحو الريف المجاور لفاس يحملون الحليب الى المدينة ، كما كانت الابقار التي ترعى في اطراف المدينة طول النهار وتقضي الليل في حظائرها ، تمد المدينة ببعض الحليب . وكانت الفواكه والخضار ، وخاصة الجزر واللفت ، كثيرة اذ كانت البساتين القائمة داخل الاسوار او الواقعة في الريف القريب، تزود المدينة بها. ولم يكن اللحم من المآكل التي يتناولها الفقراء يومياً ، بينما كان اهل الطبقة الوسطى ينعمون بقدر اوفى منها . واللحم كان من الضان او الماعز والطيور – كالدجاج والحمام وديك الحبش الذي جاء بعد اكتشاف امريكة . وكان السمك النهري ، وخاصة الشبوط ، يدخل في طعام السكان ، وكان يصاد من نهر سبو طول الشتاء من شهر تشرين الاول (اكتوبر) الى نيسان (ابريل) . ولسنا نملك معلومات تفصيلية

عن طريقة اعداد هذه المآكل ، باستثناء لحم الضان : الذي كان يطبخ في وعاء مقفل ، وكان الرأس يعتبر غاية في اللذة . ويصح القول بأن الطبخ في فاس يومها كان يشبه ما كان عليه في مطلع القرن الحالي ، باستثناء بعض التفاصيل ، ذلك لان وصفات الطعام تعود الى تقليد قديم جاء بعضه من الاندلس اصلاً ، ولذا يمكن القول ان المآكل كانت متنوعة وسائغة في مطابخ عدد من اهل الطبقة الوسطى . وكان الناس يتناولون طعامهم مشتركين جالسين حول مائدة منخفضة ، وكان الضيوف يجلسون على وسائد ويتناولون الطعام من الوعاء بايديهم اليمنى . وكانت الايدي تغسل قبل الطعام وبعده غسلاً جيداً ، وكان الفم يغسل في نهاية الوجبة . ومهما اختلفت هذه الطريقة عن الطريقـــة الاوروبية، حتى في تلك الفترة، فان لها آدابها واساليبها الخاصة المعروفة . وكانت العادة ان يتناول الرجال في كل بيت طعامهم معاً ، بينما تأكل النساء في غرفة اخرى ، وكانت العائلات تتشدد في تطبيق هذا التقليد عند وجود ضيف في البيت .

ولم تكن الثياب تختلف عن تلـــك التي وصفها الرحالون الاوروبيون في القرن الثاني عشر / الثامن عشر والثالث عشر / التاسع عشر ، وقد ترك لنا عدداً منها الرسام دو لا كروا ، الذي رافق بعثة دبلوماسية فرنسية في اوائل القرن الثالث عشر / التاسع عشر . وها نحن نقدم الآن ترجمة للوصف الذي كتبه ليو الافريقي (الحسن الوزان) في مطلع القرن العاشر / السادس

عشر عن ثياب مختلف الطبقات الاجتماعية. اولاً الطبقة الوسطى:
« في الشتاء يلبسون ثياباً مصنوعة من قماش اجنبي . وتتكون ثيابهم من سترة قصيرة مطابقة للجسم ذات اردان نصفية ، وتلبس فوق القميص . وفوق ذلك يلبسون رداء مخيطاً من الامام ، ويأتي فوق ذلك البرنس ، ويعتمرون طاقية ، يلفون حولها لفة تدور بالرأس دورتين وتمر تحت الذقن . ولا يلبسون الجوارب ، ولكن يلبسون السراويل المصنوعة من القماش . واذا ركبوا الخيـــل في الشتاء انتعلوا الجزمة . واولئك الذين ينتمون الى الطبقة الادنى يلبسون السترة والبرنس ولكن بدون الرداء المذكور ، ولا يعتمرون سوى طاقية رخيصة . والعلماء والرجال الفاضلون يلبسون سترة واسعة الاردان على نحو ما يلبسه افاضل البندقية الذين يشغلون الوظائف الكبرى . واخيراً فان رجال ادنى الطبقات يلبسون الثياب البيض المصنوعة من الصوف المحلي الخشن ، وبرانسهم من القماش نفسه .

« وترتدي النساء الثياب الجميلة ، لكنهن يكتفين في الحر بالثوب فقط ، ويشددنه بزنار قبيح . وفي الشتاء يلبسن الاردية الواسعة الاردان والمخيطة من الامام على نحو ما يصنع الرجال . فاذا خرجن لبسن السراويل الطويلة التي تغطي الرجل كلها ، واسدلن على الرأس والجسم ملاءة تغطيها ، على نحو ما تفعل نساء سورية ، وغطين الوجه بنقاب من القماش السميك ، على ان يترك فيه فتحة للعين . وكن يتحلين بالاقراط الذهبية الكبيرة

المطعمة بالحجارة الكريمة ، وبالاساور الذهبية التي تزين كلاً من المعصمين ، والتي تبلغ زنة الواحدة منها نحو ٣٥٠ غراماً عادة . وكانت النساء الاخريات ، اي من غير جماعة النبلاء ، يصنعن الاساور من الفضة ، كما كن يلبسن الخلاخيل » .

ويستنتج من هذا ان القماش الذي كان يستعمل لصنع الثياب الخارجية كان مختلف الألوان ، وانه كان ثمة ازياء في صنع الثياب وان هذه الازياء كانت تتبدل مع الوقت وكانت تفرض نفسها على المجتمع .

اما المناسبات الهامة في حياة الأسرة فكانت الزواج والولادة والتطهير والوفاة . ويزودنا ليو الافريقي (الحسن الوزان) – وهو دائماً مصدر للأخبار – بمعلومات دقيقة عن هذه الامور ، الا انها يجب ان تقبل بحذر احياناً .

كان الزواج قبل كل شيء امراً خاصاً بالأسرة : لم يكن المقصود بالزواج ارتباط رجل وامرأة برباطه ، بل كان ارتباط اسرتين معاً ، على نحو ما كان الحال في اوروبة في ذلك الوقت . وبسبب ذلك كان الزواج امراً يرتبه الآباء ؛ كان الشاب يستشار ، وكانت الفتاة تخبر ، وندر ان يكون هناك من يخالف ارادة الآباء ، على الاقل علانية . لا يحدثنا ليو عن دور الخاطبات في احكام اتفاقات الزواج ، انما يشير الى دورهن بالنسبة الى

ـواج فقط ، ويتحدث عنهن كملبسات العروس . ولعل
من النساء ، اللواتي اصبحن فيما بعد صاحبات نفوذ في
ـ ، كن يقمن في تلك الفـــترة بدور عريفات الحفلة
ـ ثانوي) . فمشروع الزواج ، الذي كان قد احيط امره
ـامة ، يعلن عنه متى اجتمع الابوان في المسجد ، ومع
ـه ، وأشهدا الله على نيتهما ، وتم عقد الزواج . وكان
ـ المهر من العريس ويعين الجهاز من العروس . وكان
ـم العقد تبادل الهدايا . وبحسب العادة المتبعة في فاس
الجهاز يعادل قيمة المهر . وكانت الأسر القادرة على
او الاسر التي تريد ان تظهر كأنها تقدر على الانفاق ،
ـبالغ طائلة خصوصاً متى أضيفت اليها نفقات الزفاف
ـكانت العادة ، بين اهل الطبقة الوسطى على الاقل ، ان
ـ الزواج الباكر ، فأكثر الشبان كانوا يتزوجون قبل
ـين ، والبنات كن يتزوجن قبل سن الخامسة عشرة .
ما كان زوجا المستقبل يخطبان واحدهما الى الآخر
في سن الطفولة . وبذلك كانت تطول مدة الخطبة .

كانت بعض الاحتفالات المتعلقة بالزفاف تتم في العرصات
كن مهيأة للطقس البارد الماطر ، فقد كان يفضـــل
الفصل الجميـــل الطقس . فاذا عيّن الموعد بدأت
دات وما يرافقها من ضجة : من جمع المواد اللازمة
الدعوات وتهيئة الخاطبات والماشطات واللاعبين على

الآلات الموسيقية . واخيراً تبدأ الاحتفالات التي تستمر عادة اسبوعاً، والتي تجري في بيت كل من العروسين . وكانت خاتمة المطاف الليلة التي تحمل فيها العروس من بيتها الى منزل الزوجية . فقد كانت العروس توضع في محفة « مثمنة الشكل مصنوعة من الخشب مسدلة عليها الستائر الجميلة المصنوعة من الحرير والديباج » ، وتحملها الحاشية على الاكتاف . وتكون العروس في ابهى حللها واجمل تزيين لها . فاذا بلغت باب الغرفة استقبلها زوجها ، وغالباً ما كان هذا اول مقابلة لها ، الا ان يكونا ، كما كان يحدث كثيراً ، من ابناء الاعمام او الاخوال ، فيكونان قد تعرف واحدهما الى الآخر من ايام الطفولة. وعندئذ يدخل الزوجان الغرفة الخاصة بها . . . . اما اذا كانت العروس ثيباً او مطلقة ، كان الاحتفاء اقل فخامة . كما ان الاحتفال بالزواج كان ابسط بين اهل الفئات الفقيرة . ومع ان الاسلام يسمح بتعدد الزوجات ، شرط العدل بينهن ، كما يسمح بالطلاق، فان هذا لم يكن مألوفاً في فاس : ففي هذه المدينة ، ذات الأسر المستقرة المعروفة ، كان ينظر الى الطلاق شزراً ، وكان تعدد الزوجات قليلاً . وكثيراً ما اشترط العقد على الزوج ان لا يتخذ لنفسه زوجة ثانية، الا في حالات معينة اهمها ان تكون الزوجة الاولى عاقراً . ومع ان التسري كان مباحاً ، فان العادة في فاس جعلت هذا الامر محدوداً ، ولا يبدو ان المدينة عرفت عدداً كبيراً من السرايا . قد تكون الطبقات الدنيا اقل حفاظاً

على استقرار الحياة الزوجية ، وخاصة بين المواطنين المستجدين على المدينة ، والذين لم يكونوا قد تطبعوا بعد بطابعها الخاص .

كانت ولادة طفل تعتبر حدثاً سعيداً بالنسبة للاسرة ، ويزداد السرور اذا كان المولود ذكراً ، وخاصة اذا كان باكورة الزواج . ومتى بلغ المولود اسبوعاً من عمره اطلق عليه اسمه ، وكان الفرح يعم الاسرة بهذه المناسبة . وقد يطهر الولد عندئذ، لكن في الغالب كانت الاسرة تؤجل التطهير الى ان يبلغ الولد سبع سنوات او ثماني من عمره . فاذا اتم الحلاق (المزين) العملية ألبس الولد رفيع الثياب وحمل على بغل عبر المدينة . وكانت تربية الصغار في سنيهم الاولى عملاً موكولاً الى النساء : الام والجدة والعمات او الخالات والخدم . فاذا بلغ الولد سناً تؤهله للتعلم تعهد الاب امر ارشاده في دروسه ، اما البنات اللواتي قلما كن يذهبن الى المدرسة ، فكن يبقين تحت حكم الام الى ان يتزوجن ، حين ينتقلن الى سلطة الزوج واهله ، اذ انهن في غالب الحالات كن يقمن مع ذوي الزوج .

في حالة الوفاة كان الحزن يغمر البيت — وكان الحزن بين اهل الطبقة الوسطى يتخذ شكلاً رزيناً معتدلاً ، ولكنه بين الفئات الدنيا كان يتم بنتف الشعور ولطم الخدود، وكان وجود الندابين المأجورين ، من الرجال والنساء على السواء ، مما يزيد في مظاهر النواح والندب . كانت الجثة تغسل جيداً ثم تلف في الكفن وتحمل الى المقبرة على الآلة الحدباء (النعش) ، وكان

الرجال فقط يسيرون في الجنازة ، مرددين ادعية دينية . وفي الغالب كان الموكب يتوقف في الطريق في مسجد للصلاة على الميت والدعاء الى الله بأن يتغمد روحه برحمته . كان ثمة مقابر متعددة تقوم في وسط المدينة حول قبر ولي مشهور ، الا ان اكثر المقابر كانت على مقربة من تحصينات المدينة ، اما داخلها واما خارجها ، وكانت اكبرها تقع قرب باب الجيسة الى الشمال او باب الفتوح الى الجنوب . وكان الجثمان يوضع في القبر ويهال عليه التراب ، بعد ان يوسد الرأس بحيث يتجه الوجه الى مكة المكرمة . اما اذا كان المتوفى من اهل الطبقة الوسطى فقد كان القبر يغطى ببلاطة كبيرة طويلة مزخرفة احياناً ، وكان لكل قبر شاهدان من الرخام محفور عليهما اسم الميت وتاريخ وفاته ويرافق ذلك غالباً ادعية او آية من آيات الذكر الحكيم . ان ليو الافريقي لا يقول فيما اذا كانت النساء يذهبن الى المقابر ايام الجمعة بعد الظهر ، على نحو ما كان يحدث فيما بعد كن يذهبن للصلاة والدعاء طبعاً ، لكنهن كن ايضاً يلقين بعضهن بعضاً ويتحدثن معاً وينعمن ببعض اللذيذ من المآكل .

كان الرجال يقومون باعمال مهنتهم وادارة املاكهم ، ان كان لهم املاك ، وتزويد البيت بحاجاته من المؤن ، اذ ان هذه المسؤولية كانت تقع عليهم ما دام خروج النساء ، في الطبقة الوسطى على الاقل لا يحدث الا لماماً . وقد كن في واقع الامر يصرفن اكثر اوقاتهن في البيت يعنين بشؤون الصغار ويصرفن

شؤون المنزل ويطرزن احياناً ، وكانت نساء الطبقات الدنيا يغزلن او يخطن الثياب لقاء اجر بسيط . كانت النساء يبقين في البيت عندما يسوء الطقس ، فاذا تحسن الطقس خرجن الى العرصة او الرفراف ، خاصة قبيل الغروب اذ تكون الشمس معتدلة . عندها كانت الرفارف في فاس تزخر بالنساء المدثرات بالثياب ذات الالوان الفاتحة ، وكن يثرثرن معاً عبر السطوح والرفارف ، وقد يزرن بعضهن البعض متخطيات الجدران القائمة بين بيت وبيت . وقد يفيد الشباب من هذه الفرصة فيرقون التلال المجاورة محاولين ان يتبينوا خطيباتهم عن بعد . وعلى كل فقد كانت النساء يخرجن من البيوت ، بين الفينة والفينة ، على ان يكون حجابهن كاملاً ، على النحو الذي ذكر . هكذا كن يقمن بزيارة اسرهن ، وقد يقمن هناك يومين او ثلاثة ، او يزرن الصديقات او يشتركن في اعياد الاسرة التي كن يدعين اليها ، كما انهن كن يذهبن الى الحمام بانتظام في الساعات المحجوزة لهن . وقد يذهبن احياناً الى القيسارية ، متى سمح لهن الازواج بذلك ، لشراء بعض ما يحتجن . وكن عادة لا يخرجن وحدهن ، بل كانت ترافقهن سيدة من الاسرة او خادمة . وما اكثر ما اثارت هذه المعيشة شفقة الغربيين الذين تحدثوا عنها . الا انه يجب ان نذكر ان نساء فاس لم يكن يتذمرن منها قط ، اذ انه لم يرد بخلدهن ان الحياة بشكل آخر كانت ممكنة ، وكن قد الفنها تماماً . ولم يحل كل هذا دون قيام البعض بمغامرات عاطفية ، شريطة ان يكون هناك من يسهل السبيل : من خادمة او عمة

او خالة تعطف على الجبين او جارة تسهل سبيل الرفراف . والمرجح ان عدد هذه المغامرات كان محدوداً ، لكنها لم تكن معدومة بالمرة .

كان ثمة شيء من المسليات يتخلل نمطية الحياة ، فالرجال كانوا يلعبون الشطرنج ، على الاقل في جماعة الطبقة الوسطى ، وكانت النساء يعقدن ، بين الفينة والفينة ، حلقات مرتجلة للرقص والغناء . الا انه قبل كل شيء كانت هناك الاعياد ، الاعياد العائلية التي مر بنا ذكرها ، وهي كثيرة بين اهل الطبقة الوسطى في هذه المدينة ، وهناك الاحتفالات العامة التي كان الرجال يسهمون فيها في الشوارع ، في حين تراقب النساء ذلك من السطوح . وكانت الاعياد الدينية وشهر رمضان تزود القوم بمناسبات كثيرة للانشراح . وكان ثمة اعياد ترجع الى ما قبل الاسلام مثل شعلة القديس يوحنا في شهر حزيران (يونيو) ، والاحتفالات الرسمية التي كانت تأتي في اعقاب نصر يحرزه السلطان ، او زواج في البلاط ، او تسنم العرش ، او دخول السلطان عاصمة ملكه اثر عودته من حملة او من زيارة الى مدينة اخرى او لمناسبة عرض عسكري . وها نحن امام وصف لمؤلف من اهل القرن الثامن / الرابع عشر لمثل هذه الاحتفالات :

« كان اهل كل سوق من الاسواق يتخذون وجهة معينة ، وكان كل رجل منهم يحمل قوساً طويلاً او اي سلاح آخر ، ويرتدي اجمل ثيابه . وكان الرجال الآتون من الاسواق المختلفة

يقضون الليل خارج المدينة . وكان لكل سوق علمه الخاص الذي يميز رجاله عن غيرهم ، كما ان الرجال كانوا يتزينون باشارة تمت الى حرفتهم بصلة . فاذا كان الصباح الباكر وخرج السلطان اصطف الرجال وساروا امامه ، بينما كان يتقدم هو ممتطياً صهوة جواده ، يحف به الجند عن يمين وشمال ، ويتبعه الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً . وترفرف الاعلام على الجهة اليمنى ، بينما يكون قارعو الطبول في المؤخرة ، حتى يؤدي فريضة الصلاة . فاذا عاد عاد اهل السوق ادراجهم الى بيوتهم » .

وكانت هذه الاعياد العامة ، في الفترة التي لم تكن فيها الالعاب معروفة، تثير احياناً التنافس الشديد بين شباب الاحياء المختلفة . وقد وصف ليو الافريقي (الحسن الوزان) بعضها على النحو التالي : « في اوقـــات معينة من السنة كان الشباب يجتمعون ، ويتخاصم شبان احد الشوارع مع شبان شارع آخر ، والجميع مسلحون بالهراوات . وقد يحدث ان تشتعل الحماسة فيهم ، فيسحب السلاح ويؤدي ذلك الى سقوط القتلى ، وخاصة عندما كان الشبان يتجمعون خارج المدينة . فاذا فرغوا من التشابك بالايدي اخذوا يرشقون بعضهم البعض بالحجارة بحيث انه يتعذر على صاحب الشرطة ان يفصل بينهم فيما لو رغب في ذلك . الا انه كان يقبض على البعض ويلقي بهم في السجن ، وهؤلاء كانوا يجلدون عبر المدينة . وما اكثر ما كان أكلة النار (من المشعوذين) يخرجون ليلاً ، وهم مسلحون ، الى خارج

المدينة ، ويتوغلون بين البساتين وفي الريف . فاذا التقوا بجماعة مثلهم من شارع اهله خصوم لهم ، اشتبكوا معاً اشتباكاً عنيفاً ، اذ ان الكره بين الفريقين كان عميقاً دوماً . وكثيراً ما كانوا يعزرون تعزيراً شديداً ويعاقبون من اجل ذلك » . وليس من ريب في ان هذا هو بقية من التوتر العنصري الذي عرفته فاس في سنيها الاولى ، لما كانت العناصر التي تسكنها غير متجانسة ولا متقاربة ، والذي كان يظهر – حتى في اوائل القرن الحالي – في مناسبات خاصة .

وبالاضافة الى هذه المسرات غير العادية ، كانت الطبقات الدنيا تنعم بسليات قليلة النفقة ، فقد كان القصاصون يتخذون لانفسهم امكنة في ساحات مكشوفة على مقربة من الابواب ، اما داخل الاسوار واما خارجها ، وهناك يتلون على مسامع الحاضرين ، مصحوبين بدف وآلة او اكثر من آلات الموسيقى الوترية او النافخة ، اخبار الحب والمفاخر التي قام بها الابطال القدامى . وكانت هذه الاخبار إما شعراً او نثراً مسجوعاً ، مما يجعل تنغيمها يسيراً . وكانوا ايضاً يبيعون الحجب او التمائم في سبيل زيادة دخلهم اليسير . وقد كانت ايام الاعياد مناسبة لهم بشكل خاص ، الا ان الزوار كانوا يترددون عليهم دوماً اذا كان الطقس جميلاً ، وعند اواخر النهار ، اذ يكون الكثيرون من العمال احراراً بعد صلاة العصر . وكان غيرهم من المهرجين يعرضون القردة والافاعي المسحورة ويقرأون البخت بخطوط

يرسمونها على الرمل . وقد يكون ثمة فِرَقٌ من لاعبي الجباز الذين كانوا يعرضون ما عندهم في الهواء الطلق .

اما اهل الطبقة الوسطى فكثيراً ما كان لهم ، في الاحياء الخارجية من المدينة ، وخاصة في المنطقة الجنوبية التي لم تكن مزدحمة بالبناء ، بساتين من الاشجار المثمرة والخضار والزهور . وغالباً ما كانوا يبنون هناك بيوتاً صيفية صغيرة حيث كانوا يأوون اليها مع اسرهم فيتقون حر الشمس وينعمون ببعض المنعشات ، وحولهم الحدائق الغناء والطيور وخرير الماء المتسلسل هناك . وغالباً ما كانوا يترددون على هذه الاماكن ايام الطقس الجميل ، بين نيسان (ابريل) وتشرين الاول (اكتوبر) ، او يغتنمون فرصة الذهاب اليها في بعض الايام المشمسة في الشتاء . وقد تقضي الاسرة احياناً بضعة ايام هناك . ولم تكن وجبات الطعام تحضر هناك ، بل كانت تحمل اليها من بيت العائلة الذي لم يكن قط بعيداً .

وكان في فاس لهو غير بريء ، يستمتع به العزاب خاصة ، لكنه كان يجذب الآخرين ايضاً . فقد كان المرء يجد فيها ، على حسب رواية ليو الافريقي (الحسن الوزان) المتكررة ، تدخين الحشيش وشرب الخمر . وقد كانت السلطات تغمض العين احياناً عن هذه الامور ، لان اصحاب هذه الاماكن المشبوهة كانوا يفعلون كل شيء كي لا تتعطل اعمـــالهم . وكانت الكثرة من المومسات يسكن في عدوة الاندلس ، وكن تحت رقابة المحتسب ،

وهو المسؤول عن مراقبة الآداب العامة . ويذكر ليو الافريقي انه وجدت حالات من الشذوذ الجنسي ، وذلك بالرغم من ان الشريعة تنهي عنه بشدة وبالرغم من ان المجتمع يعتبره تصرفاً شائناً . ولعل عزل الجنسين الواحد عن الآخر ، ولو انه لم يكن عزلاً تاماً ، كان مسؤولاً عن هذا النوع من التصرف .

وعلى كل فاذا نظرنا الى الامر نظرة بجملة ، وجدنا ان مدينة فاس كانت مدينة تعنى بالآداب . فقد كانت تسيطر عليها القواعد الخلقية التي تقرها الطبقة الوسطى من حيث مبادئها وكانت حريصة على المظهر . وقد كان هذا يقتضي قدراً لا بأس به من الرياء . وقد قال احد علماء الاخلاق الفرنسيين، وفي قوله شيء من الحكمة ، ان الرياء هو الاحترام الذي تقدمه الرذيلة للفضيلة . ففي كل مجتمع محكم الاواصر لا يمكن الاستغناء عن قدر خاص من الرياء ، اذ انه الشيء الوحيد الذي يسمح للحياة الاجتماعية ان تستمر في سيرهـــا الطبيعي دون الكثير من الصعوبات . ومجتمع فاس كان محكم الاواصر بشكل خاص . فعلماؤها من اهل الطبقة الوسطى وموظفو الدولة فيها ورجال الاعمال وضعوا الخطوط الاساسية وتقيدوا ، ولو بالظاهر على الاقل ، بهذه الآداب الاجتماعية الصارمة التي نمت مع الزمن . والذين كانوا يتحررون منها، بشكل او بآخر، هم الحديثو العهد بالمدينة ، الذين لم يكن قد مر بهم من الوقت ما يكفيهم للتطبع بطابعها وتقبل القواعد المحلية للسلوك الاجتماعي المحتشم. الا انهم

تعلموا هذه الاشياء تدريجياً ، وشيئاً فشيئاً ذابوا في ذلك المجتمع الذي كان على الاقل يعي انه يتبع في حياته تقليداً معيّناً .

كان ثمة طائفتان تتبعان حياة تختلف عن هذا الذي ذكر : طائفة اليهود والبلاط. كان اليهود الوحيدين من سكان فاس الذين كانوا خارج حظيرة الاسلام . من المحتمل انه كان ثمة مسيحيون في فاس من قبل ، اذ ان احد ابواب المدينة في عدوة الاندلس كان يسمى باب الكنيسة . الا انهم اندثروا منذ ايام الموحدين على التأكيد ، او لعل ذلك تم قبل ايامهم . ولم يكن في فاس في القرن الثامن / الرابع عشر اي من المسيحيين الآتين من اوروبة باستثناء بعض الاسرى الذين اسروا اثناء الحملة الحربية ضد اسبانيا ، وسوى الجند المسيحي من سكان حي المسيحيين في فاس الجديد ، وهي فئة لا نملك اية معلومات عنها بالنسبة للفترة التي ندرسها .

ليس لدينا اي معلومات دقيقة عن اليهود في فاس في القرن الثامن / الرابع عشر ، سوى ان هذه الطائفة كانت موجودة ، وانها كانت تقطن مدينة فاس القديمة ، ولعلها كانت تتمركز في الحي الملاصق لباب الجيسة . ونعرف ايضاً ان هذه الطائفة لم تقم باي دور سياسي ، اذ ان المؤرخ ابا الحسن بن مرزوق يمتدح سيده لانه لم يوظف في دولته يهودياً قط . وقد تبدل هذا في القرن التالي : ففي اواسط القرن التاسع / الخامس عشر

اصبح لعدد من اثرياء اليهود مكانة مرموقة في الدولة ، وقد كان احدهم سيد الدولة الحقيقي لبضع سنوات ، حتى قامت ضده ثورة عامة فاقصي عن الحكم .

على انه من الممكن ان نعرف شيئاً عن يهود فاس عن سبيل ما نعرفة عن وضع اليهود في المغرب الاسلامي في تلك الفترة بشكل عام . كان الموحدون شديدين في معاملة اليهود ، لكن هؤلاء استعادوا ما كانوا عليه بعد تولي المرينيين . وقد كان لهم طائفة تتمتع بالحكم الذاتي الديني التام ، على ان لا يتسبب عن ممارستهم لطقوسهم الدينية اي مضايقة للسكان المسلمين . وفي اطار هذه الحرية الدينية كانوا يتمتعون بتنظيم الامور المتعلقة بالاحوال الشخصية على اساس شريعة موسى . ومن ثم فقد كان في فاس ، كما كان في غيرها ، فئة من الحاخامين الذين كانوا يرشدون في شؤون العبادة ويعلمون عقيدة اليهود وناموسهم ، ويفصلون في الخصومات التي تقوم بين افراد الطائفة . ولما كان عدد اليهود في تلك الفترة غير معروف ، فانه من المستحيل الجزم بأهمية كهنة اليهود . كما اننا لا نعرف ما هو نوع العلاقات التي كانت قائمة بين الحاخامين في فاس وسواهم خارجها ، فمن المحتمل ان الاتصالات لم تنتشر بعيداً ، ولعلها لم تتعد تلمسان شرقـــاً والاندلس شمالاً . ومن المحتمل ايضاً ان الطائفة اليهودية ابتداء من هذه الفترة فما بعد ، اصبحت تبعث ممثلاً عنها الى الحكومة المرينية – يكون احــــد زعماء الطائفة –

وتقترحه الطائفة ويسميه الوالي ، على نحو ما كان عليه رؤساء الاحياء وشيوخ الصناعة ، وكان واجب هذا الموظف ان ينقل الى الحكومة رغبات الطائفة وظلاماتها ، كما انه كان عليه ان يبلغ اخدانه في الدين رغبات السلطات المسلمة او اوامرها . واخيراً فقد كان مسؤولاً عن حفظ النظام بين افراد الطائفة . ومن المحتمل انه كان على اتصال دائم مع والي فاس البالي اذ كان مسؤولاً امامه مباشرة .

من المستحيل ، بسبب انعدام المعلومات التي عندنا ، ان نرسم صورة صحيحة عن الاسلوب الذي كان يسير عليه اليهود في حياتهم . كان منهم كثيرون ، على اساس الاحتمال ، من اصحاب الحرف ، اذ ان بعض النشاطات ، كما مر بنا ، كانت حصتهم عملاً لا قانوناً . وآخرون عنُوا بالتجارة ، اذ ان بعضهم اصبحوا من كبار الاثرياء في القرن التاسع / الخامس عشر ، وهذه الثروة لم يتصلوا بها عن طريق الحرف والمهن التي ، ما كانت ، كما بينا ، لتسمح للناس بالاثراء . يضاف الى ذلك انه طالما كانت امكانية تملك الارض والعقار محدودة جداً ، حتى في حال توفرها ، فانهم لم يحصلوا على ثروتهم عن طريق المتاجرة بالملك . ومن المستحيل اذن ان تكون الثروة قد جاءتهم عن غير طريق التجارة التي يسرت لهم تكديس الاموال .

واخيراً فبالنسبة الى عاداتهم لا سبيل لنا الا التخمين . من المحتمل ان الزواج بين الطائفتين المختلفتين كان نادراً ، قد تتزوج

فتيات يهوديات من مسلمين، الا انهن في مثل هذه الحالة يعتنقن الاسلام وينفصلن عن الطائفة. اما العكس فما كان ليحدث قط. من المحتمل ان يتم الزواج مع يهود من جهات اخرى من المغرب او حتى من الاندلس ، لكن مثل هذا الزواج كان ، ولا شك ، نادراً ، ولا بد انه كان مقصوراً على عدد صغير من الاسر الثرية جداً والتي كان لها اتصال مع الخارج . اما القاعدة الاساسية فقد كانت الزواج اللحمي او الداخلي (اي داخل الطائفة) . وقد يستنتج ان عادات اليهود وطعامهم وثيابهم كانت شبيهة بما كان مألوفاً عند المسلمين مع فرق واحد وهو — ان النساء لم يتحجبن عندما كن يخرجن . هل كان الرجال يلبسون الزي الذي فرضه عليهم الخليفة المنصور الموحدي في اواخر القرن السادس / الثاني عشر ؟ يستحيل علينا اثبات هذا الامر او نفيه . اما الذي يمكن تأكيده فهو ان هذه الطائفة القليلة النفر ، كانت ، اذا نظرنا اليها نظرة عامة، تعيش بسلام وكانت علاقاتها مع المسلمين طيبة جداً، اذ لم يذكر اي من المؤرخين اية حادثة خلاف ذلك . وفي القرن التاسع / الخامس عشر فقط ظهرت احداث ، وان كنا لا نعرف طبيعتها ، يبدو انها كانت جدية ، بحيث حملت الحكومة المرينية على إسكان اليهود في حي حمص في فاس الجديد ، وهو الحي الذي سمي فيما بعد الملاّحة . وعندها ، اي لما استقرت الطائفة اليهودية في مكان منفرد تماماً ، اصبحت المعلومات الدقيقة متوفرة .

ان معلوماتنا عن البلاط اوفى ، اذ ان عدداً من المؤرخين

خلفوا وصفاً دقيقاً له . فقد كانت الحياة فيه تختلف عنها في المدينة القديمة . كان البلاط ، ايام الفتح المريني ، بلاطاً بدوياً اصلاً ، حيث كانت المناصب الرفيعة من نصيب الزعماء المرينيين والعرب ، وهم الذين كانوا قد ألفوا حياة الغزو والبداوة . ثم استقر البلاط من حيث المكان ، مع انه ظل بدوياً خالصاً ، اذ ان سلاطين بني مرين جابهوا الحاجة الى ارسال عدد من الحملات العسكرية ، وحتى في ايام السلم كان عليهم ان يتجولوا في مملكتهم اثباتاً لوجودهم ولفرض الضرائب وتثبيت سلطانهم . كان على السلطان ان يزور كل ولاية من ولايات المملكة ، في فترات معينة ، وهذا التقليد حوفظ عليه الى الآن . وفيما كان السلطان يتنقل في انحاء مملكته ، كان اكثر من نصف مدينة فاس الجديد فارغاً ، حيث تكون القوات العسكرية قليلة ، وحيث كان يقطن افراد من الاسرة المالكة ، يحيط بهم الخدم والحشم . وكان كبار موظفي الدولة عادة يرافقون السلطان في حملاتـــه وجولاته ، ولذلك كانت منازلهم لا تضم اكثر من نصف عدد سكانها في الاحوال الاعتيادية .

فاذا عاد السلطان ليستقر في عاصمة ملكه ، عادت فامتلأت بالعدد الكبير من الجند والخدم والموظفين ، وظهرت فيها معالم حياة جديدة . وعلى كل فان حياة البلاط لم تكن تشبه حياة اهل الطبقة الوسطى في مدينة فاس ، فقد كانت تسيطر عليها اطر رسمية لا يجوز تخطيها وكان على رأس الهرم السلطان ،

الذي كان يعتمد عليه في كل شيء ، في كل كبيرة وصغيرة .
ويأتي بعده الوزراء الذين كانوا في الواقع خدمه ، لكنهم كانوا خدماً على مستوى رفيع ، بحيث ان الآخرين جميعهم كانوا يقدمون لهم الاحترام – مثل قادة الجند وكبار الموظفين ، الذين كانوا عادة من قبيلة بني مرين ومن القبائل العربية الرئيسية التي كانت تعتمد على الاسرة المالكة .
ويجب ان يحسب حساب اعضاء الاسرة المالكة انفسهم الذين كانوا غالباً بدون عمل ، لان السلطان لم يكن يريد ان يمكنهم من سلطة فعلية قد يستخدمونها ضده ، ومع ذلك فقد كانوا اصحاب مكانة ممتازة . ولم يكن للنساء دور رسمي في البلاط ، اذ ان قاعدة الفصل بين الجنسين حرمتهن من الظهور امام الجمهور . لكن هذا لا يعني انهن لم يقمن بدور او انهن كن بلا نفوذ ، بل انهن كن يلعبن دورهن سراً . وقد كانت هؤلاء النسوة كثيرات ، فقد يدخل في عدادهن ام السلطان ، واحياناً جدته ، وزوجاته وسراياه ، اللواتي كن في غالب الامر اسيرات مسيحيات ، خاصة من نساء اسبانيا والبرتغال ، او من الزنجيات . واخيراً فان آخر درجة من البلاط كانت تشمل الخدم ، وغالبهم رقيق او معتقون ، وقد قامت فيما بينهم تنظيمات هرمية وغيرة وتنافس . وكثيراً ما كان يقع اختيار السلطان على واحد من خدمه ليعينه موظفاً كبيراً – وكان القائمون على خدمته الشخصية هم الذين يسعدهم الحظ في مثل هذا الاختيار . ومن السهل تصور جو الدسائس والمؤامرات

الذي كان قائماً في مثل هذا البلاط ، كما يمكن ان يقوم حول عظماء العالم جميعهم .

لدينا معلومات لا بأس بها عن الحياة اليومية في البلاط ، وهي التي وصلتنا من مؤلفين من اهل القرن الثامن / الرابع عشر ، ومن ليو الافريقي (الحسن الوزان) من اهل القرن العاشر / السادس عشر . وجميع هؤلاء متفقون على ان ابا الحسن وابا عنان كانا يبدأان يومها مبكرين مع صلاة الفجر ، ثم كان ينعقد في حضرة السلطان مجلس للعلماء وصفـــه ابن بطوطة الذي كان في فاس سنة ٧٥٠ / ١٣٤٩ ، فقال :

« واما اشتغاله بالعلم فيها هو ، ايده الله تعالى ، يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ، ويحضر لذلك اعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم ، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، وفروع مذهب مالك ، رضي الله عنه ، وكتب المتصوفة ، وفي كل علم منها له القدح المعلى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقي نكته الرائقة من حفظه ، وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين . ولم ار من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم الى هذه النهاية » .

وثمة مـــؤرخ مصري ، من الفترة نفسها ، يزودنا بتفاصيل

تكمل الصورة : « من عادة سلطانهم ان يجلس في بكرة كل يوم ، ويدخل عليه الاشياخ الكبار ليسلموا عليه ، فيمد لهم السماط ثرائد في جفان حولها طوافير وهي الخافي ، فيها اطعمة ملونة منوعة ، ومع ذلك الحلوى بعضها مصنوع بالسكر ، ومعظمها مصنوع بالعسل والزيت ، فيأكلون ثم يتفرقون الى اماكنهم » .

وقد يركب السلطان بعد ذلك ، وقد لا يركب « اما اخريات النهار فان الغالب ان يركب بعد العصر في عسكره ويذهب الى نهر هناك ثم يخرج الى مكان فسيح من الصحراء ، فيقف على نشز من الارض ، وتتطارد الخيل قدامه وتتطاعن الفرسان وتتداعى الاقران ، وتمثل الحرب لديه ، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأنها يوم الحرب حقيقة . ثم يعود في موكبه الى قصره وتتفرق العساكر ، وتحضر العلماء وفضلاء الناس واعيانهم الى محاضرته حينئذ ، فيمد لهم سماط بين يديه فيأكلون ويؤاكلهم . ثم يأخذ كاتب السر في قراءة القصص والرقاع والكلام في المهمات . ويبيت عنده من يسامره من الفضلاء في بعض الليالي ، وربما اقتضت الحال مبيت كاتب السر فيبيت عنده » .

ولم يكن السلطان يكتفي بادارة الدولة ، بل كان يخصص

بعض الوقت للنظر فيما قد يعرض له من قضايا شعبه . فاذا اراد النظر في المظالم جلس على بسط في ايوان خصص لذلك ، وقد يجلس على بساط عادي ، وقد يكون جلوسه على عرش بسيط يرتفع عن الباقين قليلاً . « وقد جرت عادة من له ظلامة ان يرتقب السلطان في ركوبـــه في موكبه (يعني يوم جلوسه للمظالم) . فاذا اجتاز به السلطان صاح من بعد لا إله الا الله ، انصرني نصرك الله . فتؤخذ قصته وتدفع لكاتب السر ، فاذا عاد جلس في قبة معينة لجلوسه ، ويجلس معه اكابر شيوخه مقلدين السيوف ، ويقف من دونهم على بعد ، مصطفين متكئين على سيوفهم . ويقرأ كاتب السر قصص اصحاب المظالم وغيرها فينظر فيها بما يراه » .

وابن بطوطة ، الذي شاهد هذه الامور بأم عينه ، يضع بين ايدينا صورة تختلف بعض الشيء عما ذكر ، اذ يقول « اما عدله فأشهر من ان يسطر في كتـــاب . فمن جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم ، وتقسيمه ذلك بين الرجال والنساء ، وتقديمه النساء لضعفهن ، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعـــة الى العصر . ومن وصلت نوبتها نودي باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة . فان كانت متظلمة عجل انصافها ، او طالبة احسان وقع اسعافها ، ثم اذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفعـــل مثل ذلك فيها . ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد اليهم ما تعلق بالاحكام

الشرعية . وهذا شيء لم ار في الملوك من يفعله على هذا التمام .
ويظهر فيه مثل هذا العدل . فان ملك الهند عين بعض امرائه
لاخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها اليه دون حضور
اربابها بين يديه » .

وكان السلطان يظهر احياناً امام الجمهور، اما لمناسبة الاعياد
الدينية او بسبب حادث خطير . ولم يكن يحضر الا على صهوة
جواد ، وكان دوماً يتبع نظاماً دقيقاً في سيره . وقد وصف
ليو الافريقي (الحسن الوزان) ذلك بقوله : « عندما يبدي
السلطان رغبته في ان يخرج على جواد ، كان الاستاذ يبلغ ذلك
الى الرسل باسم السلطان ، وهؤلاء ينقلون الخبر الى اقاربه وقواد
جنده واصحاب النظر وغيرهم من الخيالة . ويجتمع هؤلاء في
الميدان الواقع امام القصر وفي الشوارع المؤدية اليه . فاذا بدا
السلطان من قصره يعنى الرسل بترتيب الموكب ، الذي كان
يتقدمه حملة الاعلام وقارعو الطبول ، يليهم صاحب الاسطبل
مع اعوانه وصحبه ، ثم الخازن مع جماعته ثم الرؤساء ثم الاستاذ
ثم كتاب السلطان وصاحب خزانته والقاضي وصاحب الجيش .
ويأتي السلطان مصحوباً بوزيره الاكبر وامير . وقد كان ثمة
بعض من قادة الجند ممن يسير امام السلطان : فواحد يحمل
سيفه ، وآخر ترسه ، وثالث قوسه . ويسير حول السلطان
خدمه بالثياب الرسمية ، فواحد يحمل مطرده وآخر غطاء سرج
الجواد ورسنه . فاذا ترجل السلطان فرش الغطاء على السرج

ووضع الرسن فوق اللجام بحيث يقاد الجواد باليد . وكان خادم آخر ، بالثياب المزركشة ، يحمل قبقاب السلطان المزخرف زخرفة جميلة ، وهو شيء كان يحمل للجاه والفخفخة . وكان رئيس الخدم يأتي خلف السلطان ، يتبعه الخصيان . وبعد ذلك يأتي افراد الاسرة السلطانية ثم الخيالة الخفيفة ثم رماة القوس وحملة القربينة ، وكان زي السلطان في هذه المناسبة محتشماً نظامياً ، بحيث ان الذين لا يعرفونه لا يمكن ان يحسبوا انه هو ، اذ ان خدمه كانوا يلبسون ثياباً اكثر زخرفة من ثيابه ، وقماشها من النوع الجيد . ولا يلبس اي ملك مسلم او سيد كبير تاجاً على رأسه ، لان الشرع لا يرضى بذلك » .

وهذه الصفة المذكورة حرية بالعناية : فهذه البساطة التي كان السلطان يراعيها في لباسه تختلف اختلافاً بيناً عن بذخ المماليك والامبراطورية العثمانية فيما بعد . وقد تعتبر هذه البساطة انها بقية من اصول بني مرين البدوية ، وقد تكون ايضاً من فضائل التقشف عند البربر . فهذه البلاد تبدي تسامحاً نحو البهرجة في العرض لكنها لا تسهم فيها مباشرة ، والسلطان المريني كان مثلاً لهذا التحفظ .

٥ النشاط الاقتصادي

اذا جاز لنا ان نثق بالرواية فان مدينة فاس كانت دوماً مدينة اعمال ومركزاً كبيراً للتجارة والصناعة . ومهما كانت قيمة مثـــل هذا التوكيد بالنسبة للفترة الادريسية ، فانه من الطريف ان نلحظ ان مثل هذا القول له ما يبرره عند مؤرخي السنوات الاولى من القرن الثامن / الرابع عشر ، اي في حدود عشرين سنة من بدء الفترة التي نتحدث عنها . فاولئك الذين دونوا اخبار المدينة في ذلـــك الوقت ، ولم تكن بين ايديهم الوثائق المتعلقة بتاريخها المبكر ، تأثروا بنشاطها الاقتصادي القوي الذي عاشوه ، بحيث خيل اليهم انه اصيل بالنسبة الى طبيعة فاس ، ولم يقدروا ان يتصوروا الا ان هذه المدينة كانت دوماً منصرفة الى الصناعة والبيع . فكان من الطبيعي ان ينظروا الى الماضي بمنظار الحاضر . ومهما يكن من شيء فان هذا الدليل ، حتى لو لم يتوفر غيره ، هام وذو دلالة كبيرة .

كانت فاس اذن مدينة صناعية . ويجب ان لا يسهو عن البال ان هذه كانت صناعة القرون الوسطى ، التي كانت قليلة الصلة بمعنى الكلمة كما نفهمه اليوم ، سوى ان الصناعة تأخذ المادة الخام

ـ حيواناً كانت او نباتاً او معدناً ـ وتحوله الى ادوات صالحة للاستهلاك او الاستعمال اليومي ، وهذا يصدق على دباغ في فاس كما يصدق على مصنع للسيارات في دترويت .

ان الانعدام الكلي للوثائق يحول دون اعطاء اي تفصيل عن درجة التطور الصناعي في فاس ، بقطع النظر عن سرعة هذا التطور او بطئه . ويمكن اقتناص لمحة من الواقع وهو ان هذا التطور انتعش في وقت مبكر بسبب استقدام خبراء من الخارج، جاءوا معهم بالمعرفة الفنية الجارية التي يملكها سكان المدن . فنحن نعرف ، في الواقع ، ان مدينة فاس جاءها في الربع الاول من القرن الثالث / التاسع ، اي بعد تأسيسها بعدة قصيرة ، فئتان من المواطنين الذين دخلوها على التوالي بعد ان اخرجوا من قرطبة والقيروان لاسباب سياسية . ومن المعروف انه كان بين الآتين من قرطبة على الاقل عدد كبير من الصناع . وهكذا فقد كان هناك فن قيرواني ، اي شرقي، ولعله كان فيه بقية من اثر البيزنطيين ، وفن قرطبي ، شرقي الاصل ايضاً الا انه متأثر بما كان عند الرومان والايبيريين ، وفن بربري ولا شك ، لان القسم الاكبر من سكان فاس كانوا من البربر في بادىء الامر . فكيف كيّف كل من هذه الاساليب الفنية نفسه نحو غيره ؟ وكيف تطورت وما الذي انتجته قبل العهد الذي عمد فيـــه المرابطون الى انعاش الاثر الاندلسي في فاس باستقدامهم عدداً من المتخصصين من اهل شبه الجزيرة ؟ ان انعدام الوثيقة الاثرية

يحول دون الاجابة على هذا السؤال . الا اننا نستطيع ان نؤكد ان التقنية الصناعية في فاس كانت ، منذ العهد الذي توافرت عنه الوثائق اي منذ عهد المرابطين ، متأثرة الى درجة بعيدة بالأثر الاندلسي، وبقيت على ذلك الى ايام بني مرين وما بعدهم . ويمكن التوكيد ايضاً على ان الاندفاع الصناعي في فاس يرجع ، على اقصى حد ، الى عصر المرابطين ، ولعله استمر في تصاعده الى القرن الثامن / الرابع عشر ، اذ ليس لدينا ما يحملنا على الظن بانه اصيب بتأخر جدي او نكسة كبيرة .

وفي ايام ابي الحسن وابي عنان كان في المدينة نحو مئة وخمسين هيئة تعمل جنباً الى جنب ، وقد تملأ احياء معينة باصوات الادوات التي تعمل بايقاع ، من ضرب الجلد وحفيف القماش وصوت الرجال وهم يصدرون اوامرهم او يتناقشون او ينشدون . وهكذا فقد كانت سمفونية العمل المضني ترتفع يومياً من وادي فاس .

كان اكثر هؤلاء الصناع ينتجون مبدئياً من اجل مواطنيهم ، اذ ان مدينة فاس كانت تستهلك القسم الاكبر مما كانت تنتجه، ويصدق هذا بشكل خاص على المأكولات . وقد كان هناك ثـــلاث مجموعات رئيسية من السكان التي كانت تؤمن للمدينة حاجاتها الغذائية : اصحاب المطاحن واصحاب الافران واصحاب معاصر الزيت . وقـــد قامت المطاحن على النهر وروافده ، وبسبب الانحدار الشديد في مجرى النهر الذي يهبط

نحو ستين متراً في نحو كيلومتر واحد اي المسافة بين دخوله المدينة وخروجه منها ، فان هذه المطاحن التي كان عددها نحو ٤٠٠ في القرن العاشر / السادس عشر كانت تقوم بعملها بدون صعوبة . وفي اغلب الاوقات كان اصحاب المطاحن يقومون بطحن الحبوب التي يحملها الزبائن اليهم ، التي قد تكون كيساً واحداً او عشرة اكياس من القمح او الشعير . فلم يكن من المألوف ان يبتاعوا هم الحب ويطحنوه ويهيئوه للبيع .

كان عمل الافران في فاس يقتصر على خبز ما تحمله اليها الاسر من عجين جاهز ، بعد ان تكون كل اسرة قد ختمت الارغفة بطابع خاص يحول دون اختلاط الخبز في المخبز . فاذا حان وقت تسلم الخبز ازدحم الفرن بالاولاد والخدم والنساء وكل على احر من الجمر للحصول على حاجته ، والكل يتكلم ويحاج ويدافع املاً في ان يحصل على الارغفة المستديرة الذهبية ويحملها الى البيت .

وكانت معاصر الزيت تقوم على مقربة من البابين اللذين كانت احمال الزيتون تدخل منها — باب الجيسة وباب الفتوح — الا ان المعاصر القريبة من باب الجيسة كانت اكثر عدداً ، وكانت هذه توازي الاسوار ، ذلك ان غابات الزيتون كانت اوسع انتشاراً واكثر عدداً شمالي المدينة الى نهر سبو ثم الى نهر ورغة وحتى فيا وراء ذلك الى سفوح الجبال التي تطل على البحر المتوسط . كانت هذه الصناعة تشغل العمال بضعة شهور في السنة بحيث

يتمكنون من تصريف المحصول ، لذلك فانها كانت محببة الى جماعة من العمال الموسميين الذين كانوا يهبطون المدينة من الشمال في موسم الزيتون الذي كان يتفق مع الوقت الذي يكون فيه العمل في الزراعة كاسداً بعض الشيء ، باستثناء حراثة الارض . وكانت معدات المعاصر بدائية : فقد كان ثمة جرن حجري ، يقوم في وسط فسحة في البيت او في عرصته ، يوضع فيـــه الزيتون . وثمة رحى طاحون تقام على زاوية قائمة من سطح الجرن وتدور فيه فتهرس الزيتون . وهذه الرحى كان يديرها حيوان يدور بالجرن طول النهار . ويحمل الزيتون المهروس ، بعد ان يكون قد اخذ منه بعض الزيت ، في سلال من الحلفاء الى المكابس لعصره . والمكابس كانت مصنوعة من خشب الزيتون بإطارها وألواحها ولولبها (برغيها) . كانت المعاصر تقوم على مقربة من السور في احياء قلما يطرقها الناس ، ولذلك فانها لم تكن تزعج السكان بوسخها . وكان جل ما يمكن ان توقعه من الاذى هو بعض الزيت على الارض ورائحة حادة في الجو يسببها نقـــل الزيتون الخام او الزيت وغيره الى المعاصر ومنها .

بالاضافة الى هذه الصناعات الرئيسية الثلاث لم تكن هناك سوى حرف صغيرة تعمل في سبيل تزويد المدينة بحاجتها من المواد الغذائية . وأول هذه الحرف هي الجزارة التي كانت قد تمركزت في وسط المدينة في عدوة القرويين ، مع وجود حوانيت

للجزارين في بقية الاحياء وخاصة في عدوة الاندلس. وكان عدد هذه الحوانيت كلها نحو الاربعين. وكان المسلخ يقوم اسفل الجسر الاخير، على مقربة من مخرج النهر من المدينة . وكان القوم يفضلون لحم الضان، ويلي ذلك لحم البقر ثم لحم الماعز، واخيراً كان يؤكل لحم الجمل في الاحياء الفقيرة . وكانت الطيور تبتاع حية وتعلق في البيت لتسمينها قبل ذبحها . ومثل ذلك كان يصنع بالخروف المعد لعيد الاضحى . وفي موسم الربيع كان عدد من الجزارين والدباغين يعملون في بيوت الاغنياء لاعداد اللحم الذي يحفظ للاستهلاك شتاء او عند حاجة ماسة . وكان في فاس عدد من الحوانيت حيث يعد اصحابها مآكل مثل الفول المسلوق والمقانق (السجق) المقلي والمعجنات والحلويات والفواكه المقلية. وهذه الحوانيت الرخيصة كان يطعم فيها الاشخاص الذين لا اسر لهم او المسافرون المارون بالبلدة ومن اليهم . وكان اهل المدينة انفسهم يبتاعون المعجنات والحلويات من هذه الحوانيت، التي كانت في الغالب كثيرة، خاصة عند مداخل المدينة .

وكانت الحرف التي تدخل في صناعة البناء، عامة وخاصة، يشتغل فيهـــا عدد كبير من العمال . اننا لا نملك في الواقع اية احصاءات عن نشاط صناعات البناء في العصر المريني، على اننا نملك البرهان المحسوس على ان هذا النشاط كان كبيراً، اذ انه من الممكن ان نعين، واحياناً بمنتهى الدقة، تاريخ بناء العدد الكبير من المساجد والمدارس والبيوت الخاصة ومدينة فاس

الجديد بكاملها بما في ذلك تحصيناتها وكل هذا كان من صنع عمال المدينة القديمة .

لا نجد في فاس مهندسين معماريين ومقاولين على نحو ما نجد في ايامنا هذه . ويبدو ان الابنية العامة التي كانت تتولى الدولة انشاءها كان يشرف عليها موظفون ممن اصبحوا مع الزمن اختصاصيين بشؤون البناء وبذلك تولوا عمل المهندسين : وفي الواقع فان عدداً من المؤرخين يشيرون الى « المهندسين » الذين تم على ايديهم تخطيط فاس الجديد . اما الافراد الذين لم يكن لهم مثل موارد الدولة ، فقد كانوا يرسمون بانفسهم خطة تقريبية لما يريدون ان يقيموا من بناء معتبرين في ذلك حاجتهم وشكل البناء ومساحته وطبيعة المكان المعد للبناء ، ثم كانوا يتفقون مع الفئات العاملة في هذه الميادين حول العمل والسعر . وكانوا بعد ذلك يشرفون على اعمال البناء بانفسهم .

من الممكن ان نشير الى جماعات الصناع التي كانت تزود السوق بالمواد الاساسية لصناعات البنـــاء المختلفة . فمن هؤلاء صانعو الآجر ، ومنهم صانعو الفخار ، المتعدد الانواع ، الذين كانوا ينتجون الاقنية لجلب المياه وتفريغها ويصنعون القرميد للسطوح والزليج لتبليط العرصات والغرف وتزيين الاجزاء السفلى من الجدران ، ومنهم الكلاسون الذين كانوا قد اقاموا افرانهم شمالي المدينة على مقربة من المواد الخام اللازمة لصنع الكلس ، ومنهم النجارون الذين كانوا يهيئون الجوائز الكبيرة للسقوف والسطوح

عند الحاجة – وكانت من خشب الارز غالباً ، وقد تكون من خشب الزيتون ، (وفي هذه الحالة تكون اصغر) ، ومنهم الحدادون الذين كانوا يصنعون شبك النوافذ والاقفال ، واخيراً فهناك العاملون في قطع الرخام وتهيئته ، الذين كانوا يقومون بتزيين الاحواض والبرك من الداخل بالرخام او بتبليط عرصات البيوت ، والذين كان اكثر عملهم في منازل اصحاب الثراء . وكان الرخام يوجد في سفوح الاطلس الاوسط ، في مكان لا يبعد كثيراً عن فاس ، الا ان اصحاب الثراء الواسع كانوا يستوردونه من اسبانية او من ايطالية ، واحياناً كان يأتيهم مقطوعاً ومصقولاً .

كانت صناعة الثياب مزدهرة لان كل ما كان السكان يستهلكونه كان يصنع محلياً ، وذلك باستثناء القليل من الثياب النفيسة التي كانت تستورد من اوروبة او من المشرق .

وكان الحاكة مقسمين الى فئات عديدة على اساس المادة المستعملة في الصناعة : كالاصواف المتنوعة الاجناس والقطن والكتان . وكان بعضهم يستخدم الانوال البدائية لصنع العباءة ذات القبعة والمستخدم في صنعها الصوف الخشن ، وهي التي كان يبتاعها الفلاحون المقيمون في الريف القريب من فاس . وكان عند البعض الآخر انوال معقدة بعض الشيء تحاك عليها الاقمشة التي يحتاجها سكان المدينة والتي كانت تتراوح بين الاقمشة الصوفية ذات اللون الواحد والاقمشة الحريرية المزركشة بالازهار . وقد

كان في فاس في القرن العاشر / السادس عشر ما يزيد عن خمسة آلاف مشغل للحياكة يعمل فيها قرابة عشرين الف شخص . وثمة ما يحملنا على الاعتقاد بان هذه الصناعة كان لها مثل هذا الازدهار حتى في القرن الثامن / الرابع عشر . وكانت هذه الصناعة اهم صناعات فاس ومع انها كانت تصدر منتوجاتها الى المدن المغربية وحتى الى الخارج ، فان القسم الاكبر مما كانت تصنعه كان يستهلك محلياً . وكان الحاكة ييسرون العمل لعدد من فئات اخرى كانت تزودهم بالمواد الخام اللازمة لهم ، وعلى الاخص النساء اللواتي كن يغزلن الخيوط في بيوتهن ، والصباغين الذين كانت لهم اماكن على جانبي النهر على مقربة من جسر الصباغين . وكان هؤلاء يستعملون في الصباغة مواد معدنية الاصل ، كانت توجـــد على مقربة من المدينة وكانت تهيأ في مصانع خاصة بها .

وكانت فئة الدباغين كبيرة الاهمية في فاس . فهم الذين كانوا يعـــدون الجلود للصنع — وكانت هذه من جلود الخراف والماعز والابقار بالاضافة الى جلود الغزلان والجمال . ويبدو ان الدباغين كانوا اربع فئات اختصت كل منها بنوع معين من هذه الجلود . فاذا اضفنا الى هؤلاء الجماعات التي كانت تعمـــل لهم مثل ، الذين كانوا يزيلون الشعر عن الجلد ، والذين كانوا يعدون المسحوق اللازم للدباغة ، والذين كانوا يعملون في صبغ الجلد ، وجدنا ان العمال المختصين في تحضير الجلود كانوا يبلغون الالف عداً .

فاذا دبغت الجـلود انتقلت الى اصحاب الحرف المختلفة ليصنعوا منها اشياء منوعة . فهناك صناع العدة والسرج ، الذين كانوا يصنعون العدة للدواب والخيل ، وهناك صناع الحقائب ومجلدو الكتب وصانعو الاحذية الذين كانوا يزودون سكان فاس واهل الريف المجـاور بحاجتهم من الاحذية والنعال المتنوعة الاصناف والاخفاف . واذا كانت هذه الاشياء تحتـاج الى زخرفة دخلت النساء مجال الصناعة لان التطريز كان من اختصاصهن ، وكن عادة من اهل الطبقات الدنيا وكن يعملن في البيوت . ولو سلـّمنا بأن قسماً لا يستهان به من سكان فاس كانوا حفاة ، فان الجماعة التي كانت تعمل في صناعة الاحذية كانت ذات خطر ، فقد كان يستخدم في هذه الصناعة بضع مئات . ويجب ان يضاف الى هؤلاء الاسكافيون وصانعو القباقيب ، التي كان اهل الطبقة الوسطى يستعملونها عندما يكون الطقس رديئاً .

كان القماش المصنوع محلياً يخاط في البيت ، اذ ان النساء ، في الاسر الفقيرة ، كن يخطن ثياب اهل البيت . لكن اصحاب اليسار كانوا يرجعون الى الخياطين والخائطات . وكان هـؤلاء يحتاجون مهارة المخرمين وصناع الزنانير ، اذ كانوا يزودون الرجال والنساء بالزنانير المطرزة . والتطريز على اختلاف انواعه كان يتم في البيوت ، كما هي الحال في تطريز الجلد .

واخيراً فان الصناع الذين وفدوا على فاس من الاندلس

انشأوا فيها صناعة جديدة لصنع غطاء خاص للرأس، وهو الذي يسمى في فاس الشاشية او الطربوش والتسمية منقولة من مكان الصنع الاصلي ، اما في اوروبة فقد عرف بالفز ، نسبة الى مدينة فاس حيث كان يصنع .

كان من الواجب ان يقوم الصناع المحليون بصنع الادوات اللازمة للصناعة وللاعمال المنزلية اليومية، اذ انه لم يكن يستورد من الخارج الا الشيء القليل القليل . فكان الحداد ينتج الادوات المعدنية للمدينة والريف ، وجابل الخشب يصنع المقابض لهذه الادوات ، وصانع الدواليب يهيىء المحاريث للفلاحين ومقابض المجاريف والفؤوس والمذاري وغير ذلك من الادوات الزراعية ، وصانع البراميل كان يعملها من احجام مختلفة لنقل الماء او غيره من السوائـــل . وكانت الانوال الكثيرة جداً في فاس يقوم بتركيبها جماعة مختصون بذلك ، كما كان سواهم يقومون بصنع الاسطل اللازمة للصباغين والدباغين ، وفئة اخرى كانت تعنى بضبط دواليب الغزل التي لم يكن للحاكة غنى عنها . والحبالون (الشراطون) كانوا يجدلون القنب حبالاً ليوثقوا بها الاحمال على ظهور الدواب او لنشل الماء من الآبار او يتخذون منه خيوط القنب التي كانت تستعمل في صناعات متعددة .

وكان ثمـــة صناع ينصرفون الى صنع الادوات المنزلية : فمنهم النجارون الذين كانوا يصنعون الطبليات المستديرة والرفوف وخاصة الصناديق التي كانت تحتفظ فيها الفتيات المخطوبات

بجهاز العرس ، وكانت تقوم ، في معظم البيوت ، مقام خزائن الملابس ، والعلب الخشبية وخزائن الكتب ، ذلك بأن الأثاث كان عادة قليلاً في منازل اهل فاس . وهناك الحصريون الذين كانوا يحوكون البسط (الزرابي) التي تغطي ارض حجرة الصلاة وارض الغرف في البيوت الفقيرة ، وصانعو القناديل الذين كانوا يصنعون القناديل لينير بها السابلة طريقهم في الليالي المظلمة اذ لم يكن في فاس نظام للإنارة العامة . وصانعو القفف كانوا يحوكون القفف المكشوفة والسلال المتنوعة الاشكال والتي كانت تستخدم لنقل الخضار والفواكه والطيور وحتى كميات من القمح او الشعير . وثمة فئة من الصناع المساكين الذين كانوا يصنعون المكانس الصغيرة من اشجار النخيل القصيرة . وعلى مقربة من النهر كان النحاسون يصنعون القدور النحاسية التي كانت تستعمل للطبخ .

وكانت هناك فئات معينة من اصحاب الحرف تعمل اشياء خاصة بالقبائل المقيمة في الريف المحيط بفاس الى امتداد نحو خمسين كيلومتراً . فمن هؤلاء الدواليبي ، وقد ذكر قبلاً ، الذي كان يزود فلاحي المنطقة المجاورة بحاجتهم من الادوات الزراعية ، ومثل ذلك يقال عن صناع الغرابيل والحبالين . وكان البياطرة ، وتقوم حوانيتهم قرب ابواب المدينة ، يحذون بغال مواطنيهم من اهل فاس وخيولهم ، لكنهم كانوا يقومون بذلك على نحو اوسع كثيراً بالنسبة الى خيول اهل الريف

ودوابهم متى هبطوا السوق. وكان صناع السلاح يعدون حاجات جيش السلطان ، الا انهم كانوا ايضاً يعدون حاجات القبائــل المقاتلة المستقرة حول فاس ، ولعلّ عملهم هنا كان يستهلك الجزء الرئيسي من جهدهم . فقد كان على هذه القبائل ان تبعث بالفرق المطلوبة منها حالما تدعى الى ذلك ، وكانت هذه تأخذ معها دوابها وتحمل عدتها من سيوف ورماح وفؤوس للقتال وأقواس طويــلة ودروع وتروس . وكان هؤلاء يصنعون القرطمات والمهاميز البسيطة او الدمشقية . والاردية الصوفية الخشنة كانت ترسل عادة الى اهل الريف ، ومع ان القماش كان خشناً لكن الحياكة كانت دقيقة ، لذلك كانت الأردية دافئة لا يكاد المطر ينفذ منها . وكان المشاطون يصنعون الامشاط من القرون ، وهذه الامشاط كانت تستعمل للحيوانات ، كما كان منها ما هو لاستعمال الناس . ولا يزال احد شوارع فاس يحمل اسم هؤلاء الصناع الى اليوم . واخيراً فقد كان صناع فاس يعدون الشموع الغليظة والرفيعة التي كان لها زبائن كثر بين اهل الريف . كانت هذه تصنع من الشمع الاصفر ولها ذبالة من خيط قنب ثخين . فاذا اريد بالشموع ان توقد في مزار او قبر ولي زينت بحزام من الجلد المدهون . ومن الواضح ان اهل الصناعة في فاس كانوا يبيعون القسم الاكبر من منتوجهم للقبائل المقيمة في اطراف المدينة .

وقد كان لفاس تجارة واسعة تصل الى عدد من المدن المغربية ،

خاصة ما كان قريباً مثل تازا شرقاً ومكناس غرباً ، وحتى المدن الابعد مثل سلا (كانت الرباط يومها مكاناً صغيراً يتكون من ابنية قليلة متواضعة) ومراكش . والواقع ان الطبقة الوسطى في المغرب كانت تعنى باقتناء ما تنتجه فاس من الكماليات ، فكانت المدن الاخرى تبتاع اقمشة فاس واحذيتها واغطية الرأس المصنوعة هناك او انها كانت تستحضر من فاس الصناع لعمل الفسيفساء وأفاريز الجبس والمصورين . وقد كان الكثير من المباني في المدن المغربية يزينه اعمال صناع من فاس ، الذين كانوا يتغيبون عن بيوتهم اسابيع او شهوراً للقيام بهذه الاعمال .

واخيراً فان صناعة فاس كانت تصل آثارها الى مناطق ابعد مدى . ليس ثمة ما يدل على ان مصنوعات فاس عرفت أسواق اوروبة ، لكنها كانت تجد المشترين لها في عدد من بلدان شمال افريقية وشرقها وأواسطها . ويبدو من المحتمل ان الاتجار بين فاس وأقطار المشرق كانت مرتبطة بالحج الى مكة . فقد كان كثيرون من الحجاج يحملون معهم ، في هـــذه الرحلة الشاقة ، متاجر من فاس ، وكانوا يبيعونها تدريجاً ، ويعودون بمتاجر من المشرق يحملونها الى الاسواق التي يمرون بها في طريق العودة . فالثياب الثمينة والحلي ، وهي التي ستذكر ثانية فيما بعد ، كانت تكون الجزء الرئيسي ممـــا يباع في اسواق المغرب الاوسط (الجزائر) وافريقية (تونس) وطرابلس الغرب ومصر وحتى في الحجاز . اما العلاقات مع اواسط افريقية فقد كانت تجارية

بحتة . فقد كان لفاس ارتباطات تجارية منظمة مع المدن القائمة عند منحنى النيجر مثل غـــوا وتنبكت (تمبكتو) . وكانت الكماليات تباع في اسواقها بعد ان تنقلها القوافل من تفيلالت . ومن ثم فانه يمكن القول ان الحاكة والدباغين ومن اليهم ممن يقومون بأعمال مرتبطة بهم مثل الصباغين والغزالين والحذائين كانوا يزودون التجارة البعيدة المدى بالبضائع اللازمة للتصدير .

وكان للصناع اليهود حظهم في ذلك كله : فقد كانت بعض الصناعات حصتهم بحكم العادة والتقليد ، وخاصـــة ما كانت مادته الخام من المعادن ، اذ ان بعض المسلمين كانوا يستنكفون عن العمل ببعض المعادن . ومن ثم فقد كان عدد كبير من الصناع اليهود يوجدون بين صناع القناديل والمزخرفين بالمعادن ، بل ويمكن القول بأنهم كانوا يحتكرون صناعة الماشط لتمشيط الصوف وصناعة الحلي ، فكانت الاساور والخلاخيل والاقراط والاطواق والخواتم الذهبية والفضيـة من الاشياء التي يقتصر صنعها عليهم .

وقد كان جميع الصناع ، باستثناء النساء اللواتي كن يعملن في البيوت ، منتظمين في طوائف حرفية . وليس بالامكان ، في نطاق ما لدينا من مصادر اصلية ، ان نقرر بالضبط اصل الطوائف في فاس – هل جاءت من المشرق ام من الاندلس ، وقد يمكن الاجابة عن هذا السؤال فيما لو عرفنا زمن قيام هذا النظام بفاس ، الا ان المؤلفين الذين يتحدثون عن هذه المدينة لا يذكرون شيئاً

عن هذه القضية . والمؤكد هو ان هذه الطوائف الحرفية كانت موجودة في العصور المتوسطة ، دون الاشارة الى سنة معينة او اثر خاص .

وقد كانت هذه التجمعات تجمعات مهنية ، اذ ربطت بين العمال الذين كانوا يستخدمون في صناعة واحدة ، بقطع النظر عن توزيع المصانع جغرافياً . الا ان بعض الحرف، مثل الدباغة، بدا فيها ارتباط بين توزيعها الجغرافي وبين تجمعها . فقد كانت ثمة اربع من هذه المدابغ ، لكنها كانت موزعة في ثـــلاث جماعات ، اذ ان احداها كانت ، لصغرها ، مرتبطة بواحدة من المدابغ الكبرى. واذن فمن الممكن القول بأن الطوائف كانت، من ناحية عامة ، تضم العاملين في مهنة واحدة ، هذا باستثناء القليل منها . وكان جميع العمال ، بما في ذلك المبتدئون ، جزءاً من الطائفة ، الا ان المبتدئين كانوا يكتفون بما يجنون من منافع، دون المساهمة بأمور التنظيم او الادارة . وقد كان في كل طائفة نوع من التسلسل الاداري على ثلاث درجات : المستخدمون والصناع والمبتدئون . وهذا التسلسل ، الذي كان اوضح في الطوائف ذات الاعداد الكبيرة ، لم يكن تنظيماً صارماً في طبيعته . فقد كان على المبتدىء ، كي يصبح صانعاً ، ان يكون قد بلغ سن الرشد ، وان يكون قادراً على الصنع المتقن . ولم يكن يترتب عليه ان يجتاز امتحاناً ليثبت ذلك ، فقد كانت المسألة من اختصاص المستخدم والمبتدىء وأسرة هذا الاخير .

اما الانتقال من صانع الى مستخدِم فقد كان يسيراً : يكفي ان يملك الصانع رأس المال ويؤمن مكاناً لصنعه ويضمن الزبائن . ويبدو في الواقع ان وضع الاصناف المختلفة من العمال كان مستقراً ، وان الانتقال من درجـــة الى درجة كان يقوم على اساس سني الخدمة ، او بسبب فراغ ناشيء عن موت او مرض. وكان البون بين المبتدىء والصانع شاسعاً ، على الاقل في اول الامر : فالاول كان غلاماً بينما كان الثاني رجلاً . كان هذا يعرف مهنته وكان ذلك يتعلمها . كان الصانع يحصل قوته ، بينما المبتدىء كان يكتفي بمكافآت يحصل عليها لقاء الاعمال البسيطة التي يقوم بها . ثم كانت هذه الفروق تتناقص تدريجاً ، فكان المبتدىء يتعرف الى سر الصنعة ، وكانت المكافآت تصبح هامة ثم تتطور فتصبح اجرة . فاذا جاءت اللحظة التي كان فيها المبتدىء قد حذق اصول عمله ، وأصبح يتقاضى اجراً ثابتاً ، انتقل الى درجة الصانع . الا ان الصانع والمبتدىء كانا دوماً يشتركان في امر واحد — وهو انهما لم يكونا يسهمان في حياة الطائفة اسهاماً مباشراً ، اذ ان هذا كان امتيازاً خاصاً بالمستخدمين . وباستثناء هذا الفرق فان المستخدِم والصانع كانا يقومان بالاعمال نفسها . كان المستخدم يعنى حقـــاً بتسويق المصنوعات اي بالناحية التجارية من العمل ، ولو انه كان احياناً يعهد بذلك الى صانع من اصحاب الخبرة ، الا انه من الناحية المهنية كان الصناع والمستخدِمون على قدم المساواة ، اذ لم يتفوق الأولون في المهارة اليدوية . اما من حيث المال فلم يكن

ثمة فرق كبير بين الاثنين ، الا في حالات نادرة تتعلق بصانع الحياكة . ذلك بأن الصناعة في فاس لم تكن تدر الارباح الكثيرة ، على الاقل فيما يتعلق بالمنتوج اللازم للاستهلاك العادي . واذا أتيح لصاحب العمـــل ان يربح اكثر من المألوف ، بسبب ارتفاع الاسعار ، فانه كان ايضاً يتحمل نفقات العمل كله . فاذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار وجدنا ان مستوى معيشته لم يكن أعلى بكثير من مستوى معيشة العامـــل ، هذا اذا كان اعلى على الاطلاق . لكن صاحب العمل كان عضواً عاملاً في الطائفة . فقد كان يسهم في الاجتماعات العامة حينما كانت تعقد ، وفي تسمية اصحاب الشأن في الطائفة ، حينما كان يطلب ذلك منه .

ولم تكن ثمة قواعد معروفة تتبع في هـــذه التسميات . فاصحاب الشأن كانوا شيخ الطائفة وامين السوق واعوانه ، ومنهم كان يتكون مجلس الطائفة . ولم يكن العدد معيناً ، كما انهم لم يكونوا يسمون لوقت محدد — فقد كانوا يظلون في عملهم ما لم يحل الموت او التقدم في السن او غير ذلك من الاسباب الخاصة دونهم ودون القيام بواجبهم . ولم يكونوا في الواقـــع ينتخبون ، وانما كانت اسماؤهم تقترح على المحتسب الذي كان بدوره يختار الانسب ، على نحو ما كان يعين الوالي رؤساء الاحياء من بين اصحاب الاسماء التي يقترحها الاعيان . وحتى التوصية نفسها لم تكن انتخاباً بالمعنى الحـــديث : انها كانت نتيجة لعـــدد من الاجتماعات كانت تبحث فيها الامـــور

وتعرض الاسماء ويرافق ذلك نقاش قد يطول ويقصر وحماسة قد تشتد وتضعف ، وينتهي الأمر اخيراً باتفاق على الاسماء التي تقدم الى السلطات .

ليس من اليسير تحديد دور الطائفة الحرفية بالضبط . وعلى كل حال فلا يجوز ان تقارن باتحاد العمال الحديث : فقد كانت اكثر تحديداً . كان للطائفة دور في العون المستمر : فاذا اصيب احد من افرادها بضر من مرض او موت ، سواء في ذلك المستخدم والصانع والمبتدىء ، قدمت الهيئة له او لاسرته عوناً مادياً وادبياً . ولم يكن لديها مال خاص لذلك لكنها كانت تناشد الاعضاء ان يهبوا للنجدة ، ويبدو ان هؤلاء لم يخيبوا آمالها ، بل كانوا يتبرعون بالوقت والمال ، كل على قدر طاقته . وفي حالة المحاكمات سواء اكانت هذه في الطائفة ام مع مزود للبضائع او زبون ، فان اصحاب المناصب كانوا يقدمون للمحتسب المساعدة الفنية والنصح : فقد كانوا يكونون جماعة الخبراء ، الصغيرة عدداً، الذين كان المحتسب يعتمدهم في الحصول على الرأي النصوح . واخيراً فقد كان اعضاء الهيئة هذه يؤدون وظائف تنفيذية بالنيابة عن السلطة المركزية ، عندما تكون القضايا ذات طبيعة عامة . فعلى سبيل المثال عندما كانت تطلب الحكومة من الطائفة القيام بعمل فيه مصلحة عامة ، فقد كان المجلس هو الذي يوزع الواجبات بين الافراد ، على نحو ما كانت توزع الضرائب الاستثنائية عليهم . فقد كان من المألوف

ان تقدم جماعات مختلفة من اهـــل المدينة هدايا الى السلطان لمناسبة الاعياد الكبيرة او زواج احد افراد اسرته او النصر على الاعداء . وقد كان المجلس يحدد ما يجب ان يدفعه كل عضو . وكان على اصحاب المناصب ان ينظموا اعياد الطوائف : فقد كان لكل طائفة ، او على الاقل للمهم منها ، ولي يتولونه ويحتفون بعيده . فالفخارون كانوا يتولون سيدي ميمون ، الذي كان قبره على مقربة من اماكن صناعة الفخار . ولم يكن يعرف الناس عنه شيئاً . وقد يكون لصناعة ما ولي من اهل العلم الذي عني بالطائفة في حياته فاكرمته بعد وفاته . فقد كان ولي الحذائين سيدي محمد بن عباد ، الذي لم يمسك سكيناً في حياته ، لكنه كان يجيد الكتابة . وكل هؤلاء الاولياء ، الكبير والصغير منهم على السواء ، كان اتباعهم يحتفون بهم يوماً في العام : وقد يخصص اليوم للصلاة او للمرح او لعمل الخير . فقد كان اليوم الخاص بعيد سيدي أبي بو غالب ، وهو ولي المزينين ، يقوم فيه هؤلاء بتطهير الراغبين مجاناً . يضاف الى ذلك ان جميع الطوائف كانت تحتفل مشتركة بعيد ولي المدينة . وليس لدينـــا ما يؤكد فيما اذا كان الاحتفال بيوم مولاي ادريس قد بلغ في القرن الثامن / الرابع عشر ، ما بلغه فيما بعد ، ذلك بان ما نعرفه اليوم من الاهتمام بمولاي ادريس انما يعود الى القرن التاسع / الخامس عشر . ومن المحتمل ان ذكراه كانت دوماً موضع تكريم ، وعلى كل فلم تكن المدينة تخلو من مناسبات ،

دينية او مدنية ، تسهم فيها الطوائف اسهاماً كبيراً عن طريق الصناع افراداً او جماعات .

من الواضح ان دور الطوائف في الامور الاجتماعية كان اكبر منه في الامور الفنية . ونحن اذا استثنينا ما كان يطلبه المحتسب من اهل الصناعة من تقدير مهني ، فان الطوائف الحرفية كانت اكثر انصرافاً الى عمل الخير او النظر في المظالم منها الى العمل التقني فالطائفة ، على ما يبدو ، لم تعن بتنظيم نشاطها ولا بتحسينه . فقد كان هذا النشاط معروفاً منذ قرون ، وكانت الحياة تمر بالصناع رتيبة دون مشقة — فلم يخطر ببال احد ان يتفحصها من جديد . ولما لم تكن الحياة في فاس معرضة لتأثير خارجي ، فان الصناع لم يكونوا مهددين بخطر من الخارج ، ولذلك لم يدر بخلد احد ان يكون ثمة ما هو من هذه الناحية حري بالتفكير ، واقل من ذلك ان يكون ثمة ما هو جدير بالعمل .

وكان يترتب على الهيئات والطوائف المختلفة ان تقوم بنشاطاتها في اماكن تبعاً لحاجاتها المهنية . فالبعض كان بحاجة الى مساحة كبيرة وانشاءات خاصة : فالدباغون ما كان لعملهم ان يتم بدون اقامة مجموعة الخزانات والاحواض لنقع الجلود وشطفها بعد كل من الخطوات المتبعة في الصناعة . والفخارون كانوا يحتاجون الى الافران والاماكن الواسعة لخزن حاجتهم من الوقود والساحات لنشر مصنوعاتهم في الشمس قبل شيها

بالنار . وكان عصر الزيتون ايضاً يحتاج مساحة كبيرة . لكن اكثر صناع المدينة كانوا يتدبرون امرهم في اماكن يمكن استعمالها لاكثر من غرض واحد . فقد تقوم المصانع في الطابق الارضي من بناء لوكالة تجارية بينما تستعمل الطوابق الاخرى لاغراض غيرها . او قد تنشأ المصانع واسعة بحيث تتسع لعدد كبير من الانوال ، او قد تكون ثمة حوانيت بسيطة تشبه في نواحيها المتنوعة حوانيت التجار . وهذه كلها كانت تواجه الشارع وكانت ابوابها واسعة ، وقد تكون ارض هذه الاماكن على مستوى الشارع ، وقد ترتفع عنه نحو المتر . ومعنى هذا ان القسم الاكبر من الاعمال الصناعية في فاس كان يتم على مرأى من الناس جميعاً، وكان هذا مما يؤدي الى خلق جو ودي بين الصناع ومدينتهم ، الامر الذي يبدو كأنه صفة خاصة للصناعات الفنية في فاس .

وقد كان سير العمل يختلف باختلاف الفصول ، كما كان يعتمد على الاحتفالات الدينية . فقد كان يوم العمل يقصر في الشتاء ، لان كل عمل كان يتم على النور الطبيعي . اما في الصيف فكان اليوم اطول . كان العمال يبدأون اعمالهم بعد صلاة الفجر وتناول طعام الفطور ، اذ ان النور يكون قد ملأ الدنيا . وكان ثمة توقف عن العمل عند صلاة الظهر التي كان يعقبها تناول غداء خفيف في مكان العمل ، ثم كان العمل يقف عند صلاة العصر ، ما لم يكن هناك عمل مستعجل يقتضي انجازه مدة

اطول ، اذ ان اليوم كان عندما يستمر الى صلاة المغرب . وكان العمال ، على العموم ، يتمتعون بالراحة صباح يوم الجمعة بحيث كانوا يعدون انفسهم لصلاة الجمعة . وفي حالة الاعياد كان العمل يعطل يومين او ثلاثة ايام في المعدل ، اذ لم تكن هناك قوانين تحدد فترات الراحة . وقد كان الاحتفاء بعيد ولي الصناعة ، او بحادث جلـــل كعودة السلطان الى العاصمة منتصراً ، يعطل العمل ايضاً يوماً او يومين . واخيراً فقد كان الانتاج يخف طيلة شهر رمضان : فقلما كان العمل يبدأ قبل الضحى وكان يتوقف بحيث يتاح لكل ان يبلغ بيته قبل موعد الافطار . ولعلّه من الحق ان يقال ان العمل الصناعي في فاس كان نمطه مرتبطاً بدعوة المؤذن الى الصلاة وبتقويم الاعياد الدينية . وقد كان النشاط الصناعي يسير على نمط معتدل رتيب ، الا حينما تزداد حاجة المدينة الى الاستهلاك تبعاً لسبب اقتصادي او آخر ، فعندها ينشط الصناع في واجباتهم . الا ان معرفتنا تحملنا على القول بان مثل هذه الطفرات لم تكن كثيرة الحدوث ، كما انها ، حتى متى جاءت ، لم تكن آثارها الاقتصادية كبيرة .

والادوات التي كانت تستخدم في الصناعة لم تكن ، على العموم ، معقدة . ومن الطبيعي ان القوة الوحيدة المستعملة في الصناعة — او التي كادت ان تكون وحيدة — هي الطاقة البشرية . فاصحاب الطواحين وحدهم كانوا يستخدمون قوة طبيعية هي الماء المتحدر على سفح شديـــد بحيث كان يدير

الارحاء . وكان اصحاب معاصر الزيت يستخدمون الحيوانات لادارة الارحاء في معاصرهم . اما فيما تبقى من الصناعات فقد كان العمال يعتمدون على قوتهم ومهارتهم . وكانت الادوات ، على ما ذكرنا من قبل ، كلها انتاجاً محلياً . وقد كانت هذه الادوات معقدة نسبياً في حالة انوال الحياكة ، وخاصة اذا كانت تنتج الاقمشة الفاخرة . الا ان هذا كان استثناء . اما ما كان يحتاجه صناع فاس فلم يزد عن ادوات للقطع ومطارق وكماشات وخيوط وابر وقطع من القصب وشظايا من الفخار وامراس دقيقة . ومن هنا يتضح السبب في صغر رأس المال الذي قد يلزم لمن يريد ان يقوم بعمله مستقلاً : ذلك ان مجموعة ادواته لم تكن تكلفه كثيراً .

وكادت ان تأتي جميع المواد الخام من الجوار ، في منطقة لا تبعد اكثر من اربعين كيلومتراً على المعدل : فزبل الحمام الذي كان يحتاجه الدباغون لنقع الجلود في صهاريج خاصة كانت هذه حاله ، اذ يكفي ان يلمه الواحد من الارض لان الحمام كان يتخذ اعشاشه في الاشجار الكثيرة المحيطة بفاس . والشيء الوحيد الذي كان يحمل من مسافات بعيدة هو الاحجار الثمينة : فالذهب كان يؤتى به من السودان ، الا انه حري بالاشارة الى ان الحلي القديمة كانت كثيراً ما تباع محلياً وتصاغ من جديد . فالذهب الذي كان يستورد سنوياً كانت كميته صغيرة . وكان الدباغون يستوردون من تفيلالت (سجلماسة) بيض الاثـــل

للدباغة وكانوا يطلقون عليه اسمه باللغة البربرية وهو « تقوت » . وكان خشب الارز يحمل من جبال الاطلس الاوسط وخشب الزيتون من المنطقة الشمالية . وكان الريف المحيط بفاس غنياً بالانعام والمواد الغذائية والزيتون . والحجر الكلسي وغيره من حجر البناء والرمل والصلصال كانت تكثر في الجوار . وكانت شرانق الحرير تربى هناك بسبب كثرة اشجار التوت . وكانت الكميات الصغيرة من القطن والقنب اللازمة لصناعة المدينة تنتج هناك . والمواد المعدنية اللازمة لصناعة الآنية المنزلية والصباغة كانت موجودة في المنطقة . واذن فالصناعة في فاس لم تكن تقتضي استيراد المواد من مسافات بعيدة، اي باكلاف طائلة وقد تكون معرضة للانقطاع ، باستثناء التقوت . فقد كان هذا يجب ان يبتاع من مكان يبعد نحو اربعمائة كيلومتر عن المدينة، وينقل اليها بصعوبة في الشتاء ، اذ كثيراً ما كانت الممرات تقفل . الا ان الممرات لم تكن تقفل الشتاء كله ، الا في حالات نادرة شاذة، لذلك فقـــد كانت الكميات تصل الى الدباغين الذين كانوا يدخرونها للاوقات العصيبة . وحتى في حالة قيام الاضطرابات، التي كانت قليلة في الفترة المعنية ، كانت الصناعة في فاس تسير في مستقرها دون صعوبة . وقد كان هذا واضحاً تماماً في القرن التاسع / الخامس عشر لما كان المغرب مقسوماً قسمين، فانقطعت الصلة العادية المنتظمة بين مراكش وفاس ، ومع ذلك ظلت الصناعة في فاس على نشاطها ، كأنه لم يحدث شيء . ولم يكن يعطل النشاط الصناعي في فاس تعطيلاً جدياً الا ان تنشب الفتن

في المغرب بكامله ـ وهذا ما حدث في القرن الحادي عشر/السابع عشر فعلاً .

والتقنية الصناعية كانت بسيطة شأنها في ذلك شأن الادوات والمواد الخام : فقد كانت تقوم اصلاً على مهارة الصناع ، اي على الدربة التي اكتسبوها من ممارستهم الطويلة والتي كانت تبدأ مع الصبا المبكر ، وعلى الاهتمام الذي كانوا يوجهونه الى صناعاتهم . فصيانة الآلات وتزعها لم تكونا تسببان مشكلة قط ، والاعمال المتباينة التي كان يجب ان تتم في اي من الصناعات كانت بنت قرون من الممارسة والمعرفة دون ان يطرأ عليها اي تبديل . ولعـــلّ بعض الاسر كانت تحتفظ « باسرار صناعية » صغيرة ينقلها الابن عن الاب ، ولكن حتى لو انقرضت بعض هـــذه الصناعات بسبب وفاة فجائية ، فان الاقتصاد الخاص بتلك الصناعة نفسها لم يكن يتغير بسبب ذلك .

ويمكن القول اجمالاً ان المشاريع الصناعية كانت صغيرة . ولعل الحياكة ، وهي التي كانت تتمتع بازدهار كبير ، كانت الصناعة الوحيدة التي يمكن استثناؤها : ويمكن القول ، بناء على ما بين ايدينا من ادلة ، ان بعضاً من اصحاب مصانع الحياكة كان يملك الواحد منهم اربعين او اكثر من الانوال ، وكان يستخدم نحو خمسين عاملاً . الا ان مثل هذه الحالات كانت نادرة . اما الغالب فقد كان ان يحيط المستخدم نفسه بخمسة او ستة من العمال والمبتدئين ، وغالباً ما كان يحدث ، في حوانيت

الحذائين ، ان يقوم المستخدم بالعمل بنفسه ويكون عنده عامل او صبي واحد ، هو في غالب الاحيان ابنه .

في مثل هذه الاحوال لا يمكن للقوى البشرية الا ان تكون مستقرة الامور . وليس في تاريخ فاس في القرن الثامن / الرابع عشر اثر بين لأزمات صناعية ، اي فترات تراخ تعقبها فترات نشاط محموم . وكان هذا نتيجة استقرار في نمط الانتاج ، واذا كان ثمة تغير في هذا فانه كان يخضع لتقلبات محدودة المدى تعود الى تغير في الجو . فاذا جادت المحاصيل الزراعية تدفق الفلاحون الى المدينة من الريف يحملون ما عندهم للبيع ، وبذلك تزيد قدرتهم على الشراء . اما اذا تعرضت المحاصيل للاذى بسبب جفاف شديد او مطر اغزر من اللازم ، فان الفلاحين كانوا يؤجلون الشراء الى مناسبة افضل . ويبدو ان هذا الاتزان لم يتعرض لخطر جدي في اواسط القرن الثامن / الرابع عشر . وبالاضافة الى ذلك يبدو ان السكان كانوا على شيء كثير من الاستقرار ، وانه لم يعرف قط ان المدينة تعرضت لهجرة عدد كبير من الفلاحين الجائعين . ونحن اذا استثنينا فئة من العمال المياومين العابرين ، وبعض المقيمين في الضواحي ، فاننا نجد على العموم ان غالبية العمال كان من الممكن الحصول عليهم محلياً ، وفي الغالب ان يخلف الابن اباه او ابن الاخ عمه . ولو ان الوثائق كانت اوفر لامكن ملاحظة بعض التقلبات الظرفية ، ولكن هذه لم تكن قط خطيرة ، ولو وقعت مثل هـــذه التقلبات

الخطيرة لأشار اليها الرواة والمؤرخون الذين لا يغفلون عادة ذكر الاحداث الكبيرة .

وما دامت التفاصيل تعوزنا ، فاننا لا نستطيع إلا رسم صورة عامة لاحوال العمال . ان حياتهم لم تكن هينة ، ولم يبلغ المستخدمون ، الا القلة النشيطة منهم ، درجة كبيرة من اليسار . واسماء المتقدمين من اهل البلد قلما تخطىء المرمى في دلالتها — فالاسماء تعطى غالباً كاملة وتنتهي ، بالنسبة الى اولئك الذين يستوطنون الريف اصلاً ، بذكر قبائلهم ، اما بالنسبة الى سكان المدينة القدامى ، فانها تنتهي بذكر اسماء الاسر التي كثيراً ما كان يغلب عليها الكنية او الصناعة . ولسنا نجد ، بين اولئك الذين بلغوا المراتب العليا والذين وصلتنا اسماؤهم كاملة ، اسماء منسوبة الى الصناعة . وحتى لو فرضنا ان البعض كان يتخلى عن الالقاب التي تدل على صناعة ما تخلصاً من اسم يدل على اصل وضيع ، فان مثل هذا العمل لا يمكن ان يلجأ اليه كثيراً في بلد يكاد الناس جميعهم يعرفون بعضهم بعضاً . ومعنى هذا ان انعدام الاسماء المرتبطة بصناعة ما امر له دلالته بالنسبة الى ما ذكر . وقد كان ايراد العمال ، مثل ايراد المستخدمين ، يكفيهم مؤونة العيش ، ولا بد ان اصحاب الاسر الكبيرة كانوا يلاقون صعوبات كبيرة في سبيل ذلك . ومع ذلك فانه ، باستثناء حالات خاصة ، لم يبلغ القوم درجة يشكون فيها العوز ، فضلاً عن انهم كانوا يشعرون بانهم جزء من المدينة ، وانهم يتمتعون بشيء من الاعتبار

في نظر المجتمع. وفي واقع الامر، مع ان بعض العمال والمستخدمين لم يحصلوا إلا على القليل من المال ، فان بقية السكان كانوا يعترفون بهم ويحترمونهم . ولا شك في ان هذا لم ينطبق بالتساوي على الجميع، اذ كان هناك سلم اجتماعي اخلاقي للصناع. فالحاكة والدباغون وصناع الجلد والصباغون ، وهم الذين كانت تتألف منهم الطوائف الاكبر عدداً ، كانوا يعتبرون العناصر الاساسية في نشاط المدينة . وكان مهرة الصناع الذين تتاح لهم الفرصة للاتصال بالنخبة من اهل المدينة، والذين يعرفون بالذوق والمقدرة ، يفيدون من ذلك منزلة مرموقة . وعلى الضد فقد كانت بعض الصناعات تعتبر قذرة وقلما كان يمارسها سوى الغرباء عن المدينة، مثل الذين يعملون في معاصر الزيت. واخيراً فالبعض، مثل اولئك الذين يعملون في المعادن ، كان ينظر اليهم شذراً ، اذ كان يظن ان الذين يعملون في مثل هذه الصناعة لا بد ان تكون لهم معرفة بالسحر وانهم يستخدمونه . فكانوا يخشون ويحتقرون في الوقت ذاته ، ولذلك فقد كانت هذه الاعمال كثيراً ما تترك للصناع اليهود .

ومع ذلك فاننا اذا اخذنا الامر بصورته العامة ، فقد كان للصناع مكان مرموق في السلم الاخلاقي للمدينة ، لانهم كانوا كثيري العدد ولانهم كانوا يسهمون في حياة المدينة الاجتماعية اسهاماً فعالاً ، ولانهم كانوا ، على العموم ، على درجة رفيعة من الامانة المهنية . فاذا صادف واساء احدهم التصرف قامت

الضجة عليه ، ومن زملائه قبل غيرهم ، لان الشين الذي جره قد يؤذيهم . فضلاً عن ذلك فان اي جرح لشرف المهنة كان يعاقب عليه مجترحه عقاباً شديداً يوقعه به المحتسب . وقد كان لكل طائفة مصطبة تعرض فيها المصنوعات الرديئة وعليها اسماء المهملين، وبذلك كان اهل المدينة يعرفون حالاً اسم الصانع غير الشريف ، ولم يكن لديه سبيل سوى ترك المدينة . وكان ثمة بعض المواد مما لم يمكن وضعه على المصطبة مثل المواد الغذائية . وعندها كان المحتسب يعاقب المجرم « بعرض الشين » : فاذا باع جزار لحماً تالفاً كان المحتسب يأمر بتقطيع اللحم قطعاً صغيرة يصار الى صنعها عقداً يلبسه المحكوم عليه ثم يرغم على اجتياز المدينة بهذه الحالة ، ويسير في حراسة اعوان المحتسب وهو يردد الاعتراف بذنبه بصوت مسموع . وقد كان صناع فاس جماعة معتدلة ، الامر الذي جعل الطبقة الوسطى تمتدحهم عليه . ذلك انهم قلما قاموا باضطرابات سياسية . وحتى اواخر القرن الماضي ، في اول عهد مولاي الحسن ، لم تقم الا ثورة ، على ما نعلم ، نظمها الدباغون . والمؤرخون يشيرون اليها على انهـــا حادثة مخزية وانها نادرة . ولا شك في ان صناع فاس اسهموا اكثر من مرة في اضطرابات سياسية وفي ثورات ضد السلطات القائمة ، الا انهم في تلك الحالات كانوا دوماً ينضمون الى الحركات الجماهيرية التي ندر ما كانوا المحرضين عليها ، ولا شك في انهم لم يفعلوا ذلك في القرن الثامن/الرابع عشر . وباختصار فان هذه الفئة المهمة من العمال تترك في النفس الانطباع بانهـــا

كانت مجموعة امينة وديعة وتكون جزءاً اصيلاً من كيان المدينة المتكامل .

ولم يكن انتاج المواد هو القصة بكاملها ، ذلك بأنه كان لا بد من بيعها ، وهنا يتحتم علينا ان نبحث عن النشاط التجاري للمدينة . وقد كانت القاعدة العامة ان البيع والشراء كانا عمليتين حرتين ، لكن في واقع الامر فان الانتاج الصناعي في فاس كان يباع غالباً بالمزاد العلني . كان لصناع فاس الحرية التامة في ان يبيعوا منتوجهم رأساً الى اي فرد يرغب في ذلك او الى التجار ، وقد كانوا يلجأون الى هذه الطريقة بين الفينة والفينة ، الا ان مثل هذه الطريقة ما كانت تهيىء لهم سوقاً منتظمة مستقرة ، ولذلك فقد كانوا على العموم يفضلون البيع بالمزاد العلني . كان المزاد يعقـــد في فترات معينة — في كل يوم للبوابيج والاقمشة والصوف الخام وجميع المواد الخام والمنتوجات اللازمة للاستهلاك الدائم ، اما بالنسبة للاشياء الاخرى كان ينعقد مرة او مرتين في الاسبوع . وكان للمزاد مكان ثابت ، وغالباً ما يكون عرصة المخزن ، الا انه كان احياناً يقام في الشارع او الميدان حيث كانت تقوم حوانيت التجار ، وهم كبار المشترين . ونذر ان يدوم المزاد اكثر من ساعتين ، وكانت العادة ان ينعقد بعـــد صلاة العصر . وكانت هذه الرواية يقوم بتمثيل الادوار فيها ثلاث فئات من الناس : البائعون والمشترون والدلالون الذين يقيمون العلاقات بين الفريقين . وهؤلاء كانت لهم منظمات بقدر

ما كانت تقام حلقات للمزاد العلني . وكان عددهم في كل من هذه يتوقف على اهمية المنتوج المراد بيعه . ومن الواضح ان الدلالين عن الاقمشة والبضاعة الجلدية كانوا اكبر عـــدداً من الباقين . وكان دورهم الرئيسي هو عرض المواد المعهود اليهم بها وتشهيل قيمتها طمعاً في الحصول على خير الاسعار . وكان هذا في مصلحتهم ، اذ انهم كانوا يتقاضون نسبة معينة من ثمن المبيع .

كان البائعون يصلون في الساعة المعينة ويختارون دلاليهم ، وكان المألوف ان يكون لهم دلال دائم ، كانوا يألفونه ويثقون به . وكان المشترون يهبطون السوق ايضاً ، وكانوا يجلسون بشكل يتيح للدلالين ان يتنقلوا ببضائعهم دون صعوبة . وعلى كل فقد كان الغالب على اماكن المزاد انها صغيرة ، وكان المراقب الحايد لا بد ان يحسب ان عينه تقع على كتلة بشرية متراصة على غير نظام . وكانت المواد المعدة للبيع مقسمة الى وحدات تختلف من مزاد الى آخر . مثلاً كانت الاحذية تباع كل ثلاثة او كل ستة او كل اثني عشر زوجاً منها معاً ، والجلود الخام كل ستة او اثني عشر ، باستثناء جلود الثيران التي كانت تباع بالواحد . وهكذا دواليك . كان الدلالون يمرون امام المشترين عارضين المواد وهم يطلبون السعر بصوت مرتفع . فاذا ابدى المشتري رغبته في الشراء كان على الدلال ان يبحث عن البائع ليتأكد من قبوله بالسعر المعروض ، فاذا رضي هذا تمت

عملية البيع ، فاعطيت البضاعة الى المشتري ، وجيء بغيرها مكانها . وكان السعر يدفع نقداً ، فيفيد المشتري احياناً لان البائع يتنازل له عن بعض الشيء لقاء ذلك، على نحو ما يتم الخصم في ايامنا هذه . وكان هذا كله تقليدياً ولا يتناوله النقاش . فكان المشتري يدفع الثمن للدلال مضافاً اليه الجعل المألوف ، وكان الدلال يدفع الى البائع المبلغ الذي يخصه . وقد يطلب المشتري ان يسمح له بالدفع الآجل ، وعندها لا يتاح له ان يفيد من الخصم المترتب على الدفع العاجل . وقد كانت هذه السوق تعتورها تقلبات ، فترتفع الاسعار عند ازدياد الطلب ، وذلك في الايام السابقة للاعياد ، او في نهاية الموسم الزراعي عندما يكون المال متوفراً للفلاحين ، بعد بيع منتوجهم ، فيبتاعون اكثر من الضروري من حاجاتهم . وكانت الاسعار تهبط بعد الاعياد مباشرة ، اذ ان اكثر السكان كانوا ينفقون عن سعة استمتاعاً بالاعياد ، وكان عليهم الآن ان يقتصروا على ما هو لازم فقط . وكانت الاسعار تهبط في نهاية الربيع ايضاً ، حين يكون الفلاحون قد استهلكوا المال السنوي الموفر ، وهم ينتظرون بيع المحصول قبـــل ان يبدأوا بالشراء . وقد كانت ثمة ظاهرة اخرى ، وان كانت اقل انتظاماً واكثر انتشاراً ، تتدخل في نمط المزاد العلني . فان السنوات الزراعية الجيدة والسيئة على السواء كان لها اثرها ، وكذلك الاحداث السياسية والحملات الحربية والازمات الداخلية وغير ذلك كان لكل اثره . ومن البين ان في مثل هذا النظام يكون البائعون ، وهم الصناع ، في

وضع لا يحسدون عليه . ذلك بأنهم لم يكن لديهم وفر حري بالعناية ، فكانوا مرغمين على ان يبيعوا ، مهما كانت النتيجة . وعلى العكس من ذلك كانت وضعية المشترين ، الذين كانوا احياناً اصحاب مكانة مرموقة وعلى شيء كثير من الثراء ، لذلك كان باستطاعتهم ان ينتظروا ، وان يبتاعوا دوماً عندما تكون الاسعار في صالحهم . وعلى كل فكان هناك عدد كبير من التجار ممن لم يكن لديهم الكثير من المال السائل ، فكانوا مضطرين ان يبتاعوا يوماً بيوم . ويمكن وصفهم بأنهم كانوا يمثلون العنصر المنظم للسوق. وبطبيعة الحال فقد كانت طوائف كثيرة تتجنب نظام المزاد العلني . وكانت تتبع نظام التعاقد المباشر ، وهو النظام الذي كان يغلب على العاملين في صناعة البناء ، حيث كان الاتفاق يتم بين المستهلك والمنتج .

كانت البضائع التي تعرض في المزاد يبتاعها افراد قلائل ، اذ ان الوحدة كانت اكبر من حاجة الاسرة . وفي عدد كبير من الحالات كان يشتري المعروضات ، بطريقة مباشرة ، صناع يتمون صناعتها اذا كانت غير تامة او انها كانت تحتاج الى تعديل او كانت من المواد الخام . وهكذا فان الحاكة كانوا يبتاعون الصوف او الحرير الخام ، والدباغين كانوا يشترون الجلود ، وصناع الاحذية والاكياس الجلدية كانوا يبتاعون الجلود المدبوغة وهكذا . وعلى كل فان اكثر ما كان يتم من البيع والشراء كان يتم على ايدي التجار ، بائعي الجملة والمفرق منهم على السواء ، الذين كانوا في سعة من الرزق .

والذي نعرفه عن تجار الجملة في ايام بني مرين لا يزيد كثيراً عن انهم وجدوا . وتشهد بعض المنازل الجميلة التي شيدها بعضهم ، والتي لا تزال قائمة ، على انهم كانوا يجنون ارباحاً طائلة، لكننا لا نملك تفاصيل عن نشاطهم . وعلى كل فان بعض الاشارات تليح لنا ان نستنتج انهم كانوا يتعاطون نوعين من الاعمال – داخلية وخارجية . فقد كانوا ، وكادوا في ذلك ان يكونوا وحيدين ، بقدر ما يسمح لهم رأس المال المتيسر ، يجمعون المصنوعات التي تنتجها الصناعة المحلية ، ثم يبيعونها يوماً بعد يوم الى تجار المفرق ، يضاف الى ذلك انهم كانوا يسيطرون على تجارة فاس الخارجية . فقد كانوا هم الذين يبتاعون من التجار الاوروبيين المستوطنين في مليلة وباديس وسبتة ما ارتفع ثمنه من المواد ، وخاصة الاقمشة الرفيعة ، التي كانت تروج سوقها بين الاسر الغنية في المدن الكبرى ، وفاس في مقدمتها ، وفي بلاط السلطان . وهؤلاء التجار هم الذين كانوا يوفرون المال اللازم لتجارة الحج ، اي بيع المصنوعات المحلية في الاقطار الواقعة الى الشرق من المغرب ، وذلك عن طريق قوافل الحجاج التي كانت تتوجه سنوياً الى الحجاز لاداء فريضة الحج . واخيراً فقد كان هؤلاء هم الذين ينظمون القوافل التي كانت تحمل الى السودان الاقمشة والجلود من فاس وكانت تعود حاملة التبر وريش النعام والرقيق . وقد كان هذا التنظيم ممكناً بسبب الوكلاء الذين اقاموهم في تفيلالت ، بل في مدن معينة في منحنى النيجر . لم تكن هذه التجارة الخارجية ضخمة من حيث وزنها،

ولكن بالنسبة الى قيمة المتاجر المصدرة ، وكميتها الصغيرة ، والاخطار التي تتعرض لها ، والتي كان لا بد من تقديرها تقديراً كبيراً ، بالنسبة الى ذلك كله كانت التجارة الخارجية تدر ارباحاً طائلة . ويضاف الى ذلك انها كانت محببة الى قلوب تجار فاس لانهم كانوا يحبون عنصري الشك والمغامرة . وكان بعض ما تحققه التجارة الخارجية من ارباح يعاد استثماره في مشاريع جديدة ، والبعض الآخر يستخدم في شراء العقار او الاراضي الصالحة للبناء حيث كان التجار يشيدون منازلهم الانيقة . وهكذا فقد كانت الصناعة في فاس تفيد من بيع البضائع المصدرة مباشرة ، وبطريق غير مباشرة من السبل التي يستخدم فيها التجار ارباحهم . الا انه يبدو ان التجار لم يكونوا يوظفون الاموال التي تتجمع لديهم في مغامرات صناعية جديدة . ولعلّهم كانوا لا يرون ان البيع المستمر لمنتوجات فاس يبرر توسعاً او تطوراً كبيراً .

كان باعة المفرق على صنفين : اولئك الذين كانوا يبيعون المواد الثمينة — كالاقمشة الرفيعة والاحذية والحلي والافاويه، وهم الذين كانوا قد اقاموا لانفسهم مكاناً ثابتاً في القيسارية. والصنف الثاني هم اولئك الذين كانوا يبيعون في احياء المدينة المختلفة مصنوعات المدينة المعدة للاستهلاك اليومي ، وخاصة المواد الغذائية والبيض والزبدة والزيت والصابون والفواكه وما الى ذلك . وقد كان اهل الصنف الاول هم اهل اليسار لان المتاجر

التي كانوا يتعاملون بها كانت على العموم ثمينة ، وكان الزبائن اغنياء ، ومن ثم فقد كان مقدار الربح كبيراً . وكانوا يحتلون شوارع صغيرة مختلفة في القيسارية. فكان هناك ، بسبب ذلك ، سوق القماش الصوفي والاقمشة الحريرية والجوهرات والشموع والافاويه والاحذية . وكانت الحوانيت المتجـــاورة تعرض البضائع نفسها . وضَمّ التجار معاً ، على اساس التخصص في المواد التي يبيعونها، يشبه ما عرف في اوروبة في العصور الوسطى مع استثناء واحد هو : لا يبدو ان اوروبة عرفت مـــا يشبه القيسارية — اي مكان تملأه الحوانيت في كل جهة ، وليس من يقيم فيه، والذي كان يقفل تماماً في الليل . وكان ثمة عدد من العسس كان عليهم ان يحموا المكان من الحريق واللصوص . وكان تجار القيسارية يؤلفون جزءاً ، على الاقل ، ممن يدعون الطبقة الوسطى في المدينة .

اما الصنف الثاني من تجار المفرق فقد كانوا اقل اطمئناناً : فطبيعة منتوجاتهم وصفة زبائنهم الغريبة لم تمكّناهم من الحصول على ارباح كبيرة . يضاف الى ذلك انهم كانوا يعتمدون على زبائن الحي ، ذلك بأنه اذا اكثر الفلاحون والمسافرون العابرون التردد على القيسارية ، فانهم لم يكونوا يقصدون من تجار المفرق، الا اولئك الذين كانت لهم حوانيت على مقربـــة من ابواب المدينة . واذن فقد كان تجار المفرق في اغلب الاحيان صنفاً من التجار الفقراء ، الذين كان مستوى المعيشة عندهم قريباً جداً من

مستوى المعيشة عند الصناع . وكثيراً ما كان هؤلاء مضطرين الى شراء البضائع على الدين فكانوا يعتمدون على تجار الجملة ، الذين كانوا وحدهم القادرين على التسليف الى اجل .

هذه هي الصورة العامة للحياة الاقتصادية في فاس في القرن الثامن / الرابع عشر ، بقدر ما امكننا معرفته عنها . ويتضح لنا حالاً ان صفتها الرئيسية هي انها كانت ضيقة محدودة . فلم تكن فاس واحدة من المدن التجارية التي قامت بدور كبير في النشاط التجاري والصناعي في العالم القديم كالقاهرة والاسكندرية او بغداد والبصرة او حلب وحتى تونس او القسطنطينيـــة وأزمير او المدن الايطالية الكثيرة ، هذا حتى اذا تخطينا المدن التجارية الاوروبية البعيدة عن حوض البحر المتوسط . فهذه الحياة المتواضعة نسبياً في فاس كانت مدينة بما آلت اليه الى الموقع الجغرافي . فقد كان المغرب في القرن الثامن / الرابع عشر يعتبر انه واقع في جزء ناء من العالم القديم ، وبعيد عن الطرق التجارية الكبرى التي تعبر البحر المتوسط . ويجب ان لا يسهو عن البال ان المحيط الاطلسي لم يكن في ذلك الوقت طريقاً تجارياً — فان البرتغاليين لم يبـــدأوا بإدخال الحياة فيه الا في اواخر القرن التاسع / الخامس عشر اثر اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد ان اقاموا عدداً من المراكز التجارية على شواطىء المحيط الاطلسي الافريقية ، ولم يتم للاتجار مع امريكة التقدم النشيط الا في القرن العاشر / السادس عشر . ويبدو

واضحاً ان المغرب كان بعيداً عن شبكة الخطوط التجارية البحرية الكبرى. ولم يكن مركزه بالنسبة للاتجار مع القارة الافريقية عبر الصحراء بأفضل من ذلك. وقد كان المغرب في هذا الميدان يشكو المنافسة الشديدة مع تلمسان التي لم تكن ابعد عن السودان من فاس، اذا استعملت طريق توات وززفانة. فضلاً عن ان الموانىء التي كانت تفيد منها تلمسان – هونين ورسغونة ووهران – كانت ايسر متناولاً، من الموانىء التي تفيد منها فاس، على السفن الايطالية وهي انشط السفن تجارة في غرب البحر المتوسط في ذلك الوقت. واخيراً فان شبه جزيرة ايبيرية كان مجالاً مغلقاً بالنسبة لفاس، وهي المتصلة بها اتصالاً جغرافياً مناسباً يمكنها من القيام بنشاط تجاري وثيق، وذلك بسبب استعادة الاسبانيين لاجزاء كثيرة من الاندلس، وبسبب الحروب الكثيرة التي نشبت بين المغاربة والقشتاليين. ومن ثم فان تجارة فاس والمنافذ المفتوحة لصناعاتها كانت ذات صبغة محلية واضحة.

ولكن اذا كان هذا النشاط الاقتصادي محدوداً للاسباب التي ذكرت الآن، فانه كان في القرن الثامن/الرابع عشر يسير بهدوء ويتمتع ببلد موحد، كما انه كان يقوم في منطقة حبتها الطبيعة بأرض ثرية صالحة للزراعة. وفي هذه الاحوال نجد ان نشاط المدينة الاقتصادي لم يكن بالشيء المستهان، على ما يدا لنا، وكان يتمتع بصفة الاستقرار البين، بحيث انه لم تكن تقلقه

الا الازمات المغربية الخطيرة ، التي لم يسجل القرن الثامن/الرابع عشر منها شيئاً ، لان قوة المرينيين كانت متينة الجذور ولان النظام كان مستتباً . وكأن مهارة الصناع وحكمة التجار ، مع ما كانوا يتحلون به من روح وثّابة ، عوضت اهل المدينة ، الى حد ما، عن موقع فاس الجغرافي والمجال المحدود الذي نشأ عنه .

٦ الحياة الفكرية

يمكن ان نقدر ان مدينة فاس كانت ، منذ نشأتها ، مركزاً للعلم الاسلامي والثقافة العربية ، هذا مــع العلم بأننا لا نملك المعلومات الدقيقة حول الموضوع . وفي واقع الامر ان المدينة كانت معزولة في طرف العالم الاسلامي ، ولم يكن ثمة على قرب معقول منها اي من مراكز الثقافة الاسلامية بحيث يمكنها من ارسال ابنائها الراغبين في تلقي العلم . ولم تكن حال تلمسان وطنجة بافضل من حالها . وكانت الاندلس بعيدة ولعلّها كانت تضمر شيئاً من العداء للادارسة ، او على الاقل تبدي نحوهم شيئاً من الشك . ومن ثم فقد اضطرت المدينة الناشئة الى الاعتماد على مواردها وحدها . وكان جديراً بها ان تنمي وسائلها الخاصة كمركز للعلم الاسلامي . ولعلّه كان في حاشية الادريسيَّيْن الاولين فئة من اهل العلم ، ومن المحتمل ان تكون جموع اللاجئين الذين جاءوا المدينة من قرطبة والقيروان في مطلع القرن الثالث / التاسع قد ضمت فئة اخرى من الضليعين بشؤون المعرفة . ولما اتيح لاموبي قرطبة ان يحملوا من شمال المغرب ، بما في ذلك فاس ، محمية في القرن الرابع / العاشر ، تأثرت حياة

البلاد الفكرية والاندلس كما تأثرت الحياة الفنية . الا ان هذا التأثر الفكري الذي نما على الشكل الذي ذكر ظل مركزاً متواضعاً مجهولاً حتى زمن المرابطين .

فهل اتيح لأهل الصحراء ، الذين صقلتهم الحياة الاندلسية وكانت لهم الدليل ، ان يبعثوا الحياة الفكرية في فاس ؟ ان اهتمامهم بتوسيع جامع القرويين وزخرفته دليل على ما كان عندهم من عناية شديدة بشؤون الدين . ولكن لما خطر لابن تومرت ، الذي قام بحركة الموحدين ، ان يرحل في طلب العلم في مطلع القرن السادس / الثاني عشر ، فانه لم يذهب الى فاس بل يمم وجهه نحو قرطبة اولاً ، ثم نحـــو المشرق . ويبدو ان مدينة الادريس لم تقم من نفسه موقع المدينة التي يمكن ان تزوده بحاجته من توسيع لآفاقه الفكرية . فلما عاد من المشرق بعد خمس عشرة سنة طلب علماء فاس لكن بشكل لا يختلف عن عنايته بعلمـــاء تلمسان او غيرها . فلعله يمكن القول اذن بان تطور فاس الفكري كان بطيئاً . ففي زمن المرابطين والموحدين كانت مراكش مركز الحياة الفكرية والسياسية في المغرب : فالفيلسوفان ابن طفيل وابن رشد قصدا مراكش لما تركا الاندلس الى المغرب . والفضل في تطوير الحياة الفكرية وتمتينها وتعميق جذورها ، ولو ببطء ، في فاس انما يرجع الى بني مرين ، كما يرجع اليهم الفضل في الاهتمام بنواح اخرى من الحياة في فاس . فقد كان تشجيعهم لفاس هو الذي جعل منها عاصمة الفكر في المغرب

وما جاوره من جهة المشرق ، وقد استمرت على ذلك مدة طويلة .

وقد تطورت الحياة الفكرية في فاس ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الاماكن ، حول مركز للعلم لم يلبث ان اتخذ مقاماً ممتازاً في الفترة التي نتحدث عنها . وقد نما هذا المركز تدريجاً واتخـــذ الشكل المألوف في دور العلم الاسلامية في القرون الوسطى ، اي في هذا الذي تسميه المدارس الابتدائية او المدارس القرآنية وفي عدد من المساجد او الكليات حيث كانت تقدم الدروس العليا .

وليس لدينا معلومات معينة عن المدارس القرآنية في ايام بني مرين : وان كان من المؤكد انها كانت تشبه جميع المدارس القرآنية في العالم الاسلامي باجمعه . كان الاولاد يرسلون اليها متى بلغوا الخامسة او السادسة . وكان هؤلاء يتعلمون القرآن الكريم قراءة وكتابة وحفظاً ، والمشرف عليهم معلم واحد يتحلقون حوله ، بقطع النظر عن تبـــاين اعمارهم واختلاف تحصيلهم وكفاياتهم . وفي الوقت ذاته، وبسبب من سير الامور، كانوا يتلقون تدريجاً اللغة العربية ونحوها ، ولو ان هذين لم يكونا الهدف المباشر من التعلم ، اذ ان الهدف المباشر هو معرفة القرآن الكريم وحفظه . وقد تقوم قاعة الدرس في جوار مسجد ، وكانت ادارة الاوقاف (الحبوس) تقدم القاعة مجاناً . وكثيراً ما كان المعلم فقيراً كل رأسماله انه يحفظ القرآن الكريم،

فلذلك كان يتلقى من التلاميذ اجراً اسبوعياً زهيداً بالاضافة الى الهدايا النقدية او العينية التي كانت تحمل اليه في الاعياد الكبرى ، او الاحتفالات المدرسية الخاصة ، وخاصة الاحتفال بختم القرآن. كان لكل تلميذ لوح صغير من الخشب وقلم من ريشة الاوز ودواة للحبر ، وكان يكتب على اللوح درسه اليومي . فاذا تعلم التلميذ الدرس وحفظه ، وهو حفظ مفروض ان يظل معه مدى الحياة ، غسل اللوح وكتب درساً جديداً . وكان الاولاد يسكنون على مقربة من المدرسة ، فكانوا يأتون مبكرين بعد تناولهم طعام الفطور ، ويجلسون على الحصير الذي كان يغطي ارض الغرفة ، ويظلون هناك حتى قرب الظهر اذ يذهبون الى البيت لتناول طعام الغداء . ويعودون بعد ذلك مباشرة ويتابعون تعلمهم حتى صلاة العصر ، اذ ينتهي يومهم المدرسي . وكان هذان الاجتماعان اليوميان مخصصين للكتابة والحفظ . وكانت القطع المعينة للحفظ تحتاج الى يوم او يومين ، وكان يختلف طولها باختلاف التلاميذ . فهي قصيرة مكونة من بضعة اسطر للمبتدئين الذين يأخذون انفسهم بالحفظ متى تعلموا الحروف العربية ، طويلة لمن تدربوا على اعمال المدرسة . وكانت القطع مختلفة باختلاف التلاميذ ، باستثناء ان يكون اثنان منهم قد اتفقا في البدء بالدراسة وفي القدرة على التعلم ، فتكون القطعة التي يتعلمانها واحدة . وكانوا يرددون القطع المعدة للحفظ بصوت مرتفع ويجودون فيها . فكانت اصوات الاولاد تنبعث من مختلف المدارس القرآنية ، وكل جماعة تقرأ من القرآن

الكريم جزءاً يختلف عما تقرأه الاخرى ، بحيث تبدو للذي يسمع الاصوات ، دون ان يعرف الوضع ، شيئاً غريباً ، اما المعلم فيكون قد ألف الامر حتى انه كان يكتشف الغلطة يغلطها التلميذ بين الجماعة كلها فينزل المعلم به عقاباً آنياً بقضيب كان يحتفظ به على مقربة منه . اما اذا كان الذنب اكبر من ذلك كالكسل او اساءة الادب او الاساءة الى النظام فكانت الفلقة عقاب التلميذ .

انها طريقة غريبة في التربية ، وما اشدها مفارقة لما عرفناه من المبادىء الحديثة ! الا انه لا يمكن ان ينكر عليها انها كانت ، ولا تزال الى اليوم ، تتميز بما فيها من فاعلية . لا يمكن القول بان جميع التلاميذ الذين تعلموا في المدرسة القرآنية كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر القلب . لكنهم تعلموا على الاقل اجزاء منه ستظل معهم طول حياتهم ، وكانوا يدربون على اتباع الآداب الاسلامية ، لان معلم القرآن لم يكن معلماً فنياً فحسب ، جل همه ان ينقل الى الاولاد نتفاً من المعرفة . لقد كان مربياً يسهر على تربيتهم على القواعد التي يتوجب على المسلم الصالح ان يتبعها. الا ان الحق الذي لا مرية فيه هو ان هذا النوع من التعليم ، اذا نظرنا اليه من الناحية العقلية ، وجدنا ان ميزته الرئيسية هو اعتماده على الذاكرة وتقويتها ، وقلما كان يتخطى ذلك ، اذ ان تعليم اللغة والنحو لم يكن منظماً ، بل كان يعطى عندما تقتضي آية كريمة تفسيراً لغوياً او نحوياً ، وما اكثر ما كانت الآيات صعبة حتى على المتعلمين .

ولم يكن اكثر الاولاد ، خاصة اولاد الفقراء ، يتجاوزون مستوى المدارس القرآنية ، وكثير منهم كانوا يتركون حتى هذه قبل ختم القرآن. واولئك الذين كتب لهم ان يختموا القرآن، وكانوا قد بلغوا الثالثة عشرة او الرابعة عشرة من عمرهم، كانوا يتابعون دراستهم اذا كانت مواردهم تسمح بذلك او اذا قيض لهم من الرزق ما يكفيهم . وهذه المرحلة يمكن تسميتها بالمرحلة المتوسطة ، الا ان تنظيمها يبدو غامضاً . ففي واقع الامر كان كل شخص يستطيع ان يُدرّس متى اذن له القاضي الذي كان عادة يستشير علماء فاس في الامر . فاذا حصل رجل على الاذن اذاع ذلك على الملأ من اهل المدينة ، معلناً عن الدرس الذي يريد ان يلقيه ، مختاراً مسجداً او زاوية او ما الى ذلك ، على ان يدرس خارج اوقات الصلاة. وقد يختار المدرس النحو او اصول الفقه او الكلام ، وكان نجاحه يتوقف على انصاره ومؤيديه ، كما كان يعتمد على صفاته ومقدرته . فهو لم يكن تعليماً تنظمه الدولة ، لكنه كان تعليماً تشرف الدولة عليه ، وكان تعليماً يختلف مستواه من حالة لاخرى . ومع ذلك فانه يمكن ان يستنتج انه في مدينة مثل فاس لم يكن يقدم على مثل هذا العمل الا المقتدرون نسبياً ، اذ ان الآخرين ما كانوا ليعثروا على طلاب . وكان الطلاب ممن حفظ القرآن الكريم وحذق القراءة والكتابة واتقن التجويد وتفقه في بعض من امور اللغة والنحو . وكان عمل المدرس هنا ان يتأكد من انهم لن ينسوا القرآن الكريم وانهم يتلقون بعض آراء في النحو والفقه . ولم يكن ثمة

برنامج معين او اوقات مخصصة لمواضيع مقررة . فمتى احس التلميذ وابوه ومعلموه انه قد تعلم ما فيه الكفاية ، كان ينتقل الى الدراسة العالية .

من البين ان بني مرين هم الذين ناصروا التعليم العالي مناصرة فعالة في فاس ، بحيث انه يمكن اعتبارهم المؤسسين الحقيقيين « لجامعة فاس » . هذا وان تأسيس مدارس كثيرة في فاس كان اكبر دليل على اهتمامهم بالعلم . فماذا كان الباعث لبني مرين على الاهتمام بهذا الامر؟ لا شك في انهم رغبوا في ان يكون لعاصمتهم التي خاص ، وان يجعلوها مدينة الفكر الرئيسية في دولتهم ، كما كانت المدينة الرئيسية في السياسة والاقتصاد . وقد كانت حماستهم الدينية ولا شك عاملاً في ذلك : وهم ، على عكس المرابطين والموحدين ، لم يستولوا على السلطة باسم المثل الدينية . لعلهم كانوا يرون في ذلك فجوة قد تؤذيهم ، لذلك رغبوا في انه يحيطوا انفسهم بهالة من المجد كانت تعوزهم . الا انه يجب ان نذكر ايضاً ان المدارس التي انشأوها كانت مساكن للطلاب كما كانت اماكن للتعليم . لذلك يبدو كأن كل شيء عملوه انما قصدوا به الاشراف على التدريب الفكري والديني للكثرة من الاولاد الاذكياء الآتين من ريف المغرب . وهذه هي الفترة التي شهد المغرب فيه تطور التيار الشعبي في التصوف ، الذي يبدو انـــه اخذ يتقوى منذ اوائل القرن السابع / الثالث عشر . وقد ترتب على هذه الحركة ظهور بدع جدية على مستوى العقيدة . وعلى

المستوى السياسي كان من الممكن ان تنتهي بالفوضى ، لان اثر متصوفة الارياف كان يتعدى حدود الدين البحت وينشط في مجال السياسة ايضاً . ويبدو ان المرينيين حاولوا ان يكبحوا جماح هذه القوى الطاردة ، فدعوا الى فاس اولئك الذين كانت تتكون منهم النخبة الريفية ، واخضعوهم لقواعد السنة الدقيقة ولنظام سياسي معين . وعلى كل حال فان وجود عدد لا يستهان به من الشبان – وكان عددهم بضع مئين في اواسط القرن الثامن / الرابع عشر – الآتين من المناطق الرئيسية من المغرب كان مظهراً جديداً في فاس لكنه لم يلبث ان اصبح كبير الاهمية. فقد اسبغ على قاس نوعاً من السيادة الفكرية على المغرب باكمله، الامر الذي لم تتمتع به المدينة من قبل . ومن المؤكد ان مجيء الشبان الغرباء الى فاس للتعلم كان قد حدث من قبل ، لكن الاعداد كانت صغيرة ، اذ ان الطلاب كانوا يلاقون الكثير من الصعاب في سبيل الحصول على المساكن. فانشاء معاهد خصصت اصلاً لاستقبالهم شجعهم على القدوم باعداد اكبر وزاد في تألق المعلمين في فاس الى درجة كبيرة .

يبدو ان بني مرين ، كما اشرنا من قبل ، لم يخصوا جامع القرويين باحتكار التعليم . من المؤكد ان اكثر المدارس بنيت حول هذا الجامع، مما يدل على واحد من امرين: اما ان الجامع كانت له منزلة خاصة ، واما ان بني مرين ارادوا ان يسبغوا عليه مثل هذا التميز . الا ان بناء مدرستين توأمين على مقربة من جامع

الاندلس يشير الى وجود مركز مزدهر للعلم هناك ايضاً . وانشاء مدرسة اخرى قرب الجامع الكبير في فاس الجديد هو برهان على ان المرينيين ارادوا ان يتخذوا من المدينة الملكية مركزاً ثالثاً للعلم ، كما ان تأسيس ابي عنان لقاعة كبيرة للتدريس في المدرسة التي انشأها بنفسه يدل دلالة واضحة على ان هذا السلطان كان يرغب في فتح مركز رابع . فما هو القصد من اقامة التعليم على اساس اللامركزية ؟ هل يمكن اعتبار هذا الامر بدءاً لمرحلة التخصص في المدارس المختلفة في فاس ؟ يبدو ان تسمية مدرسة باسم مدرسة القراءات السبع فيه دليل على ذلك، الا ان هذا لا يعدو ان يكون اشارة قد لا يكون من الحكمة اعتبارها قاعدة لاستخلاص نتائج قطعية . ومع ذلك فانه من الممكن التأكيد على ان مجموع هذه المراكز المختلفة للتعليم يكوّن ما يصح ان يسمى جامعة فاس .

كان الاساتذة يكونون هيئة من العلماء صار لها تدريجاً دور متزايد الاهمية في الحياة الفكرية والروحية والسياسية لا في فاس وحدها ولكن في المغرب بأكمله . انه من المؤسف انه يستحيل تكوين اية فكرة عن عـــدد هؤلاء الاساتذة او عن الاسلوب الذي كان ينتظمهم . ومن المحتمل انه قد كان لهم فيما بينهم سلم ادبي وان لم يكن لهم سلم مهني ينتظم امورهم . وعلى كل حال فقد كان ضم اساتذة جدد يقوم على اساس من الاختيار، اذ ان القاضي كان يأذن لقوم بالتعليم بعد ان يستشير

العلماء انفسهم . ومن المرجح ان يكون اكثرهم من اهل الطبقة الوسطى المحلية ، الا انه من المؤكد ايضاً انهم كانوا يمنحون البعض من طلابهم الآتين من الريف حق الانضمام الى صفوفهم ، كما يتضح من اسماء عدد من الاساتذة . ومثل ذلك ابن آجروم المتوفى في فاس سنة ٧٢٢ / ١٣٢٢ ، فان اسمه بربري تماماً وقد ولد في صفرو ، التي تقع على نحو ثلاثين كيلومتراً جنوبي فاس ، والتي كان غالب سكانها من البربر . وقد وضع ألفية في النحو لخص فيها هذا العلم ، وهي لا تزال تستعمل الى يوم الناس هذا . ويبدو واضحاً ان هؤلاء العلماء ، على ما كان بينهم من منافسة ، كانوا في الغالب من الحالات يظهرون تضامناً كبيراً : فقد كانوا يعون انهم يلنشئون نخبة اهل الفكر في المدينة والبلاد ، وكانوا ، في الامور الخطيرة ، يتصرفون تصرف الجسم الواحد .

ليس من المؤكد انهم كانوا يقبضون مرتبات ثابتة ، الا انهم كانوا يتمتعون بنعمة السكن ، وقد خصصت لهم هدايا نقدية او عينية ، تدفعها لهم الحكومة في مناسبة الاعيـــاد الدينية والمناسبات الهامة التي كان البلاط يحتفي بها . وقد كان لكثيرين منهم املاك خاصة قد تكون كبيرة ، وثمة آخرون ممن اصهر الى اسر غنية ، واخيراً فقد كان هناك من يزيد وارداته عن طريق تقديم النصح في الامور الشرعية . فقد كانوا ، على العموم ، يعيشون في يسار . ويمكن ان يستنتج ان اكثرهم ، ان لم يكن جميعهم ، قد تلقوا العلم في فاس .

كانت موضوعات التدريس دينية في طبيعتها . فكانت تشمل التفسير والحديث والتوحيد وخاصة الفقه ، وهو الموضوع الذي ارتفعت منزلته تدريجاً ، وكان يشمل العبادات . وكان يضاف الى هذه المجالات العلمية الكبرى النحو والبلاغة والعروض والمنطق ، ومبادىء الرياضيات والفلك اذ كانا يستعملان في التوقيت الديني وتقسيم المواريث . ولعله من الممكن ان التاريخ الاسلامي والجغرافية وشيئاً من الكيمياء كانت ايضاً تعلم في فاس في هذه الفترة . وعلى كل فالعلوم الطبيعية والاجتماعية لم تكن ، على ما يظهر ، تحتل مكاناً كبيراً في المناهج المدرسية في فاس ، مع انه كان بين كتاب ابي الحسن رجل اسمه ابو العباس احمد بن شعيب الذي كان طبيباً وعالماً بمفردات النبات .

من الضروري ان نبرز المحـــور الاساسي الذي كان يدور حوله هذا النظام التعليمي . لقد كان تعليماً اساسه نقل التراث من جيل الى جيل ، وكان من الواضح ان طابعه المحافظة . وكان الواجب الاصلي الملقى على عاتق علماء فاس ، شأنهم في ذلك شأن زملائهم في العالم الاسلامي وفي اوروبة في العصور الوسطى ، ينتظم نقل الحقيقة ، لا الحقيقة التي تنتج عن التجربة الانسانية والتي يكلف الحصول عليها الكثير من العناء ، بل الحقيقة الالهية التي اوحى بها الله الى النبي الكريم والتي شرحها نبهاء اهل العلم من المسلمين . وكان واجبهم الاول ان ينقلوا الى خلفائهم هذه الحقيقة كاملة غير منقوصة ولا مزيداً فيها — ومن هنا جاءت

صفة المحافظة في تعليمهم . ولذلــك كانت الخصال التي عنوا بتنميتها في طلابهم ، قبل كل شيء ، هي الحفظ والامانة التي لا هوادة فيها : فقد كان الاساتذة يضعون بين ايديهم وديعة مقدسة كان عليهم ، بدورهم ، ان يسلموها الى خلفائهم دون تزييف او فساد . ومثل هذا التعليم كان اشبه بعمل المعاهد اللاهوتية منه بالتعليم الجامعي الحديث .

كان التعليم يتوقف يومين كل اسبوع – على الراجح في يومي الخميس والجمعة . اما في بقية ايام الاسبوع فقد كانت الدروس تبدأ بعيد صلاة الفجر وتنتهي قبيل صلاة العصر . كان لكل استاذ ، بطبيعة الحال ، برنامجه الخاص ، وكان عليه ان يعقد عدداً معيناً من الاجتماعات في كل اسبوع . كان الاستاذ يجلس على دكة يسيرة الارتفاع ، بحيث يشرف على الطلاب الذين كانوا يتحلقون حوله على الارض . وكانت الدروس تتألف من قراءة احد المتون وشرحه ، وكانت المتون تختار من كتب المؤلفين القدامى ، يغلب عليها ان تكون من وضع المشهود لهم بالعلم والمعرفة ، وان كان يفضل متن من متون المذهب المالكي ، الذي كان ينتمي اليه ، دون استثناء ، جميع العلماء بفاس وغالب علماء المغرب العربي . كان على الطالب ان يقرأ ، وكان الاستاذ يوقفه بين الفينة والفينة ليشرح للطلاب فقرة او جملة او حتى كلمة واحدة ، عندما يشعر بالحاجة الى ذلك . وقد يطول شرحه او يقصر . واذن فقد كان التعليم اصلاً قراءة وشرحاً .

وليس من الثابت ما اذا كان الطلاب يدونون شيئاً في الكراسات — فقد كانت ذاكرتهم مدربة تدريباً قوياً على الحفظ .

كان الطلاب صنفين : ابناء فاس والغرباء عنها . فالاولون كانوا يستمرون على العيش مع اهليهم ، ولم تكن اعاشتهم مشكلة قط . اما الصنف الثاني فكان افراده يأتون من مختلف المدن المغربية حتى من تلمسان ، اذ ان هذه المدينة كانت ، لمدة عشرين سنة بدءاً من عام ٧٣٨ / ١٣٣٧ ، تكوّن جزءاً من مملكة بني مرين . وكان ثمة عدد كبير من اهل الارياف — البعض من الشمال بين فاس والبحر المتوسط والبعض الآخر من سهول الاطلسي وآخرون من المناطق الصحراوية من تفيلالت وغيرها من المواضع . ويبدو انه باستثناء عدد نادر لم يكن البربر المقيمون في الجبال يقصدون مدينة فاس لطلب العلم ، ولذلك سبب حتمي : انهم لم يكونوا يعرفون العربية ، وان تعلموها فبطريق المصادفة . وكانت غالبية هؤلاء الطلبة « الغرباء » يقيمون في المدارس . وقد كانت هذه المدارس ، مبدئياً ، تقدم غرفة لكل تلميذ ، وقد كان في بعض هذه المدارس ما يزيد عن مئة من الغرف . وكانت الغرف صغيرة ضيقة غالباً وجدرانها عارية ، الا انها كانت بالنسبة الى هؤلاء الطلاب الذين كانوا يعيشون في بيوت صغيرة في الريف ، او احياناً في مضارب ، تبدو كأنها اماكن فخمة . وقد يستنتج ، كما اصبحت الحال فيما بعد ، انه بسبب تدفق الطلاب كانت الغرفة الواحدة تخصص لتلميذين او حتى

لثلاثة ، ولكنهم لم يكونوا يتضايقون فيها . ويروي ليـــو الافريقي (الحسن الوزان) انه في القرن الثامن / الرابع عشر ، كان « كل تلميذ يزود بالمؤن والثياب لمدة سبع سنين » ، وكانت النفقات تخرج من الاوقاف الخيرية . وهذه النتفة من الخبر ، فضلاً عن انها تقدم لنا اشارة الى معدل مدة الدراسة ، فانها تسمح لنا بان نستنتج بان المدارس كانت لها اوقاف غنية . وبالاضافة الى المساعدة التي يحصلون عليها من الدولة ، كان هؤلاء الطلاب ، وعلى الاقل الذين كانوا على شيء من اليسار ، يتلقون بعض المآكل من ذويهم . اما الآخرون فقد كانوا يستطيعون ان يزيدوا ايرادهم باسهامهم في الصلاة على الجنائز حيث كانوا يقرأون آيات الذكر الحكيم او يرددون الادعية ، او باعطاء دروس خاصة ، على نحو ما عرف عن الطلاب في كل مكان وزمان . وباختصار فانه يبدو انهم لم يكونوا يشكون العوز . فقد عمل المرينيون الكثير لهؤلاء الطلاب . وليس في الرواة من نقل عنهم انهم كانوا يشتركون في اعمال الشغب . فمناخ فاس العام وما فيه من توقير واجلال ، ومعيشة الطلاب التي كانت شبيهة بحياة النساك ، فرضتا عليهم نوعاً من النظام الذي يبـــدو انهم لم ينتهكوا حرمته . والدولة او الاوقاف — وهما يكادان يكونان شيئاً واحداً — كانت تدفع لهم ما يمكنها من مطالبتهم بالتصرف المسؤول ، فاذا لجـــأوا الى الخداع ، تعرضوا لخطر الطرد .

كان امام الطالب الفاسي الاصل ، متى اتم دراسته ، فرص

متعددة العمل . فقد يدخل في خدمة الدولة الامر الذي يفتح امامه ابواباً عديدة ، او قد ينضم الى جماعة المدرسين والاساتذة اذا كانت لاسرته ارتباطات تيسر له ذلك ، او قد ينضم الى الموثقين او اهل الشرع ، وهما مهنتان كان لهما مستقبل باهر في مدينة يغرم اهلها بالامور الشرعية . وثمة من كان يكتفي بما حصل عليه من ثقافة وعلم ، فينكفىء الى العمل الذي كان يمارسه والده او اسرته ويعمد الى الاشراف على املاك اسرته . وكان اكثر «الغرباء» يعودون الى مدنهم او قراهم او قبائلهم للقيام باعمال التعليم او الاهتمام بالقضاء . وقد يجرب الموهوبون منه ان ينافسوا شباب فاس في ميادينهم وكثيراً مـــا كانوا ينجحون : واذا وفقوا في الاصهار الى اسرة نافذة الكلمة فانهم يحصلون على مواطنة المدينة . ليس لدينا اية فكرة عن عدد هؤلاء الطلاب او عن عدد «المتخرجين» سنوياً من مدارس فاس . ويبدو ان عددهم كان يتناسب وحاجات البلاد ، اذ ليس هناك ما يشير الى ان البلاد مرت بها فترة عرفت فيها تخمة في اهل العلم . والنتيجة المؤكدة لهذا النوع من التعليم هي ان النخبة المغربية ، على الاقل النخبة من اهل العلم ، كانت تتلقى نوعاً واحداً من التدريب . فسواء كانت القضية تتعلق بالعمل التجاري او الادارة او التعليم او القضاء ، فجميع العاملين في هذه الميادين كانوا قد دربوا في قالب واحد ، وكانوا يعبرون عن انفسهم باسلوب فكري واحد ، وكانوا ينشرون في طول البلاد وعرضها حقيقة واحدة أزلية ، كانت تنقل من جيل الى

جيل بمنتهى العناية . وقد كان لهذا اثر ايجابي في تمتين الروابط في البلاد ، ولعله ساعد في خلق ما يسمى في تعبيرنا الحديث « بالوعي الوطني » في بعض مناطق من المغرب . الا ان هذه المواءمة لم تكن بدون مضار : فقد سبكت الثقافة المغربية في قوالب محدودة ، وضيقت الخناق على الشخصية ، ولعلها كانت مسؤولة ، فيما تلا من الزمن ، عن الشلل الفكري الذي حلّ بالمغرب قروناً طويلة . فقد كانت هذه الثقافة اشياء تدور على نفسها .

من المؤكد ان الجامعة كانت المركز الفكري الاكبر في فاس ، الا انه كان هناك مركز آخر ، وهو البلاط . والمؤرخون الذين وصفوا هذه الفترة من تاريخ فاس مجمعين على ان ابا الحسن وابا عنان كانا اميرين عالمين وكانت رعايتهما للحياة الفكرية كبيرة . ويروي ابن بطوطة انه من عادة السلطان ، اذا كان في عاصمة ملكه ، ان يجمع حوله كل صباح العلماء والمتأدبين ويتحدث اليهم في موضوع من موضوعات الدرس . فأما ان يقرأوا من آيات الذكر الحكيم ويفسروه ، او أن يرووا بعض الاحاديث الشريفة ويشرحوها ، او ان يعمدوا الى كتاب في الشرع فيتحدثوا عنه ، او ان يختاروا كتاباً في التصوف فيدور الكلام حوله . وقد كان للشعر سوق في البلاط . فيروي ليو الافريقي (الحسن الوزان) ان السلطان نظم مسابقات في الشعر ، وخاصة لمناسبة المولد النبوي . وعلى حد تعبيره « كان المنشد يقف على صُفّة مرتفعة .

وعندما كان المحكمون من اصحاب الكفاءات يصدرون حكمهم ، كان السلطان يمنح الشاعر المبرز مئة قطعة من الذهب وفرساً وجارية ويلقي عليه الثوب الذي يرتديه . وكان يمنح كلاً من الشعراء الباقين خمسين قطعة من الذهب ، بحيث ان الجميع ينالهم من احسانه » . وليس من شك في ان سلاطين بني مرين في القرن الثامن / الرابع عشر كانوا يشجعون كتابة التاريخ . اذ ليس من قبيل المصادفة ان تزدهر المدرسة التاريخية في فاس في ذلك الوقت . وقد قضى ابن خلدون ، وهو العبقري الفذ واعظم مؤرخ انجبه المغرب العربي الى يومنا هذا ، ومؤسس علم الاجتماع التاريخي ، سنوات في البلاط بفاس . ولسان الدين ابن الخطيب، المؤرخ والوزير الغرناطي ، وجد في فاس ملجأ له قبل ان يدس له سيده الاسبق ، ملك غرناطة ، من يقتله . وقد كان لسلاطين بني مرين في القرن الثامن / الرابع عشر عـــدد من المؤرخين الرسميين منهم ابن مرزوق الذي دون امجاد حكم ابي الحسن . وعلى كل فانه من الطبيعي ان لا يكون للفلسفة مكان في هـــذا النشاط الفكري . ذلك بأن سلاطين بني مرين لم يكن لهم من سعة الافق ما كان لاسلافهم الموحدين . وقد كان ادراكهم للحياة الفكرية يقوم على مذهب السنة الدقيق الذي لم يتسع لمثل الجرأة الفكرية التي كانت عند ابن طفيل او عند ابن رشد، بينما لم يتردد سلاطين الموحدين في اواخر القرن السادس / الثاني عشر في استقدام هذين المفكرين الكبيرين الى بلاطهم .

بالاضافة الى العلماء المجازين والكتاب الذين كانوا يميزون انفسهم في فئات معترف لها بالفضل ، فاننا يجب ان نفسح المجال للذين يفيدون من الحياة الفكرية ، اولئك الذين كانوا يستخدمون فئات مشكوكاً فيها في نظر اهل السنة . وكان المتصوفة في مقدمة هذه الفئات . وقد اشرنا الى ان ابا عنان كان حريصاً على الاطلاع على آثارهم ، الا اننا يجب ان نتذكر انه كان يكرم المعتدلين منهم وهم الذين اكتفوا بان لا يتجاوز حبهم السنّة الا بمثقال ذرة . وقد كان هناك فئة اكبر مغامرة وامعن في الشذوذ، الا ان هؤلاء لم يكن لهم في حاشية السلطان مكان . والوصف المفصل الذي خلفه لنا ليو الافريقي (الحسن الوزان) لهـــذه الجماعة فيه حيوية من نوع معين فانه يقول : « ليس من النادر ان يدعو احد الفضلاء ، لمناسبة عيد او احتفال ، احد اسياد هؤلاء الصوفيين مع اتباعه جميعهم . وعندما يصلون الى مكان الوليمة يأخذون انفسهم بالصلاة والدعاء والانشاد . فاذا انتهت الوليمة اخذ كبارهم في السن بتمزيق ثيابهم ، واذا سقط احد هؤلاء وهم يدورون على انفسهم راقصين ، اقترب منه احد شباب المتصوفة واوقفه ثانية ، فيمنحه هذا قبلة المحبة ... » . ويبدو ان مدينة فاس ، وهي بلد المواءمة التامة ، كانت فيها عناصر لم تنسجم تماماً مع الجو العام . فبالاضافة الى المتصوفة نجد فئـــة اخرى موضعها في درجة منخفضة من السلم الاجتماعي وهم جماعة العلم الباطن الذين كانوا يؤمنون بمعرفتهم ومقدرتهم في الشعوذة ويفيدون من استعداد الجماهير لتصديقهم . واذن فاننا نجد تحت

هذا الموقف الاخلاقي القويم ، الذي كانت فاس تأخذ نفسها به ، نوعاً آخر من البشر وهم جماعة كانت تتصرف بشكل يدعو الى الريبة في سلوكها وآدابها ، ويحملنا على الشك في مجالاتها الفكرية المعوجـــة . ويحملنا هذا كله على التأكيد بأن هذه المدينة التي ارادت لنفسها ان تظهر بمظهر الوقار والحشمة ، لم تكن تخلو من ثغرات ، وانها كانت تتألم ، كما كان يتألم غيرها من المدن ، من نواح من الضعف ابت عليها نفسها ان تعترف بها الا فيما ندر ، ومع ذلك فقد كانت موجودة . ومع وجود هذا القالب القاسي الذي كان البلاط والجامعة يعينان شكله ، فقد كان في فاس ، في القرن الثامن / الرابع عشر ، شيء من حرية الفكر .

على اننا يجب ان نحـــذر من ان نضل سواء السبيل ان نحن اخذنا ما يقوله ليو الافريقي (الحسن الوزان) ، والصور التي يرسمها ، والتي قد تكون مدعاة للقلق ، مأخذ الجد . فان حرية الفكر التي اشرنا اليها قبلاً كانت محدودة جداً وكانت الحياة الفكرية ، بالرغم مما يبدو عليها من نشاط ، كأنها مشدودة في قوالب خاصة ، كما انها لم تترك للفرد مجالاً للابداع واظهار الشخصية . وقد زخرف الكثير من المؤرخين رواياتهم بمختارات من الشعر تختلف طولاً وقصراً . وكل هذه فيها شبه غريب لبعضها البعض ، وتختلف الواحدة عن الاخرى في الترتيب واختيار الكلمات ، الا انها جميعاً تحمل علامة تجارية واحدة بحيث يصبح التباين مستحيلاً . وليس في اي من هذه المختارات ما يعبر عن

انفعال نفسي . فاذا قرأ الواحد شعراً او سجعاً او رواية في التاريخ او رسالة في الشرع فان الاثر الذي يتركه ذلك في نفسه واحد : وهو ان الثقافة في فاس ، كانت ترمي الى اخضاع الفرد وجعله لا يعدو ان يكون وعاء نقياً يتسع للحقيقة المجردة التي كان من مستلزماتها الرئيسية ان تنقل تامة من جيل الى جيل . وهذا الضغط الجماعي الملح الذي لا يريد للانسان المثقف ان يكون ذاته ، بل يجب له ان يكون تمثالاً لا شخصية له يعمل ويفكر كما تفكر المجموعة وتعمل ، دون ان يظهر مواهبه الخاصة الا في تفاصيل جزئية صغيرة سطحية — هذا الضغط الجماعي كان بحاجة الى رجل كابن خلدون ، بما أوتي من قوة في التفكير ، لكي يتخلص منه . وفضلاً عن ذلك فانه جدير بنا ان نتذكر ان ابن خلدون ظل مجهولاً لمدة طويلة . فقد أدهشت عبقريتُه مجتمعَه الذي امتاز بطبيعته اللاشخصية ، بل لعلها اثارت فيه فضيحة فكرية ، ولكنها لم تجد فيه اي صدى .

٧ الحياة الدينية

لما كانت فاس مدينة انشأها الاشراف فقد حق لها ان تأخذ نفسها لا بالعناية بالتجارة والحياة الفكرية فحسب ، بل بالاهتمام بالحياة الروحية والتقوى (على الاقل مثل اخذها نفسها بالامرين الآخرين) . وقد كانت مركزاً رئيسياً للاسلام في المغرب حتى قبل المرينيين بمدة طويلة . وقد اشرنا الى محاولات هـؤلاء السلاطين في ان يزيدوا في ألقها في هذا المجال ، وقد آن الاوان لان نرسم صورة لفاس كمركز للحياة الاسلامية .

كان نمط الحياة اليومية ، تبعاً لطبيعة الامور ، دينياً . وكما لاحظنا في الفصول السابقة فان الدعوة الى نشاط الصناع والتجار والعلماء والاسر كانت تتم عن طريق القيام بفريضة الصلاة يومياً، كما ان التبادل بين العمل والراحة كان يتحكم فيه التقويم الديني . ويجب ان يضاف الى ذلك ان اللغة نفسها كانت مطبوعة بطابع الاسلام بشكل في غاية الالفة . انه من المؤسف اننا لا نملك نصوصاً عن احاديث منتزعة من صميم الحياة في الفترة التي نبحثها لانه ، لسوء الحظ ، لم تجر العادة بتدوين الاحاديث اليومية بالعربية . الا ان النصوص الادبية التي وصلتنا تزينها التعابير

الدينية ، وقد يمكن التأكيد ، دون خطر الوقوع في خطأ كبير ، بأن الكثير من التعابير المستعملة اليوم في احاديث الناس اليومية تتحدر من اصل قديم : فاسم الجلالة والاهتمام بالقوى الخارقة للطبيعة تجـــد لها مكاناً في كل جملة تقريباً ، لا في لغة المتأدبين فحسب ولكن في لغة العامة ايضاً . وهذه الظاهرة لا تختص بها فاس وحدها : فالتأثر بالدين ظاهرة واضحة الاثر في العالم الاسلامي كله حتى يوم الناس هذا . الا انه يمكن القول ان هذا التأثر بالدين يبدو في فاس اشد وضوحاً .

نعرف انه يتوجب على المسلمين ، أنـّى وجدوا الى ذلك سبيلاً ، ان يتجمعوا خمس مرات في اليـــوم في المساجد لأداء فريضة الصلاة ، متوجهين اليه تعالى جماعة ، مسبحين بحمده ممجدين ذكره . ليس لدينا اية معلومات دقيقة عن الاحترام الذي كان الناس يكنونه لهذه المظاهر الدينية في القرن الثامن / الرابع عشر . ومع ذلك فهناك اشارة موثوق بها : وهي ان الابنية التي كانت تمت الى العبادة بصلة ، باجماع مصادرنا جميعها ، كانت كثيرة جداً . فقد كان اول ما عني به المرينيون ، لما بنوا مدينة فاس الجديد الملكية ، هو انشاء جامع جدير بها ، ولم يلبث ان ضم الى الجامع الكبير مدرسة ومسجد آخر ، ثم بني في فاس الجديد مسجدان آخران في القرن التالي ، تبعاً لتطوير المدينة الملكية . اما المدينة القديمة فقد كانت مزودة بحاجتها من المساجد والمنابر ، ومع ذلك فقد بنى المرينيون مسجدين جديدين

ـ مسجد الاسكافيين ومسجد ابي الحسن ، ويجب ان يذكر ان كل مدرسة كان فيها قاعة للصلاة مفتوحة لا للطلاب المقيمين فيها فحسب ، بل للمؤمنين من اهل الجوار ايضاً . ولولا كثرة تردد الناس على المساجد ، لما بنيت بهذا العدد الكبير ، ولما وقفت عليها الاوقاف اللازمة لها بهذه الكثرة . ولذلك فانه يمكن القول ، دون خطر الوقوع في خطأ فاضح ، بأن نسبة كبيرة من المجتمع كانت تحترم فرض الصلاة وتؤديه . ولا يبدو ان النساء كن يترددن كثيراً على المساجد اذ ان المكان المخصص للنساء ، الذي يوجد في الاقطار الاسلامية الاخرى ، ندر وجوده هنا . ويجب ألا يستنتج من هذا ان نساء فاس لم يكن تقيات . وكل ما في الامر انهن كن يمارسن فروض العبادة في البيت .

كان صوت المؤذن هو الذي يدعو المؤمن ويحمله على الذهاب الى المسجد كل يوم عند الفجر والظهر والعصر والغروب والعشاء . وعلى كل حال فقد يحدث ان تحول امور طبيعية دون بعض الناس والذهاب الى المسجد في الساعة المعينة ، فكان هؤلاء يصلون فرادى حيث يكونون ، وذلك بعد ان يتأكدوا من طهارة المكان او القماش او البساط الذي يفرشونه على الارض . وفي يوم الجمعة كانت الصلاة تقام جامعة في المساجد المختلفة ، وكان من المألوف ان يلقي الشخص المعين لذلك خطبة الجمعة ، وفيها يذكر اسم السلطان . ومعنى هذا ان صلاة الجمعة كانت فعل ولاء سياسي يجدد كل اسبوع وخاصة عندما يعتلي العرش

سلطان جديد . والخطبة قد تكون دعوة الى مكارم الاخلاق ، او شرحاً لامر من امور العقيدة ، فالامر كان متوقفاً على مقدرة الامام ومرتبطاً بالاحوال السائدة يومها . وسنرى فيما بعد ان الصلاة ، اثناء الاعيـــاد الاسلامية الكبرى ، كانت تقام في العراء .

والفَرْض الثاني المتوجب على المسلم ، وهو سنوي لا يومي ، هو صيام رمضان . ولمـــا كانت السنة القمرية اقصر من السنة الشمسية باحد عشر يوماً فان شهر رمضان يتعاقب على فصول السنة جميعها . والمعقول انه في مدينة مثل فاس حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً وحيث يراقبون بعضهم بعضاً كان هذا الفرض مما يحترمه الجميع .

الا ان رمضان لم يكن في فاس وفي غيرها من اجزاء المغرب العربي حدثاً دينياً جليلاً فحسب ، بل كان حدثاً اجتماعياً ، فقد كانت المدينة تغير نمط الحياة فيها مدة شهر كامل كل سنة . كانت وجبات الطعام تؤخذ عند الغروب ثم في آخر الليل، وكان ثمة فئة من المسحرين يدورون بانحـــاء المدينة في الوقت المناسب ويقرعون الابواب مذكرين الناس باقتراب موعد الامساك عن الطعام . والى جانب تناول طعام الافطار والامساك فقد كان جزء من الليل يصرف في الاجتماعات . ففي رمضان كانت تتم الزيارات الليلية الى الاقارب والاصدقاء ، وكان الناس يتأخرون في النوم . وكان يترتب على ذلك ان يبدو على المدينة في الصباح

انها مهجورة : فالشوارع خالية بحيث ان الاطفال كانوا يتمتعون باللعب فيها ، الامر الذي لم يكن ممكناً في الاوقات العادية ، والحوانيت والمصانع مقفلة اذ ان الناس كانوا يعودون الى النوم بعـــد صلاة الفجر ليمتعوا انفسهم بغفوة الصباح التي لم يكن يُستغنى عنها . وفي الصباح المتأخر كانت المدينة تعج بالحركة ويعود اليها نشاطها ويستمر ذلك الى ما قبيل المغرب . وعلى العموم فقد كان نشاط المدينة العادي يخف كثيراً في هذا الشهر ، الذي كان شهر عبادة وتضحية لكنه كان ايضاً ، والى درجة محدودة ، شهر راحة وعطلة جزئية . وكان يحتفل بليلة القدر ، في السابع والعشرين من رمضان ، احتفالاً خاصاً ، اذ فيها اوحي بأول آيات الذكر الحكيم . ففيها كان يقرأ القرآن الكريم بأكمله خلال الليل في مساجد المدينة الرئيسية ، وكان يتناوب على ذلك رجال نذروا انفسهم لذلك . وكان العامة يعتقدون بان الله ينزل ملائكته الى الاماكن المأهولة بالمؤمنين ، وكل من لمح ملاكاً في السماء كان له ان يطلب من الله امراً ، ومن المرجح ان يتحقق طلبه . ومن هنا جاءت تسمية هذه الليلة بليلة القدر . ومن ثم فقد كان الكثيرون من الناس يذرعون شوارع المدينة مقلبين اوجههم في السماء ، محدقين بابصار تشع بقوة الايمان . واخيراً فقد كانت تعطى دروس عامة في جامع القرويين ، تبدأ بعد الافطار وتستمر الى ما بعد صلاة العشاء ، وقد تعطى في غيره من المساجد . وكانت الدروس تعالج القضايا الدينية . وهكذا فقد كان يتم في هذا الشهر نوع من التأمل الروحي

تسهم فيه طبقات المجتمع كلها ، وكأننا بالناس يتطهرون فيه من الذنوب .

شهر التضحية هذا والعيد الذي كان يأتي في اعقابه مباشرة كانا يتيحان لسكان فاس الفرصة للقيام بفرض آخر من الفروض الاسلامية وهو أداء الزكاة . وقد كانت الزكاة اصلاً ، في نظر الامة الاسلامية ، ضريبة القصد منها تخفيف مصاب المساكين والفقراء وابناء السبيل . لكن في واقع الامر لم تلبث ان اصبحت الزكاة مصدراً رئيسياً لدخل الدولة ، التي كانت بطبيعة الحال بحاجة الى دخل لتسديد نفقاتها ، وكانت حصة الفقراء منها الفتات . وهذا هو التطور الذي آل اليه الامر في العالم الاسلامي ، في المغرب وغيره . وقد انتهى الامر بالاثرياء الى انهم كانوا يقدمون الهدايا للفقراء في اوقــات متعاقبة ، بالاضافة الى ما يدفعونه الى الدولة ضريبة ، وقد كان اهل فاس على الاقل يقومون بذلك في آخر شهر رمضان لمناسبة عيد الفطر ، وبذلك كان الفقراء ينالهم شيء من السرور والفرح . وقد تكون هذه الهدايا نقدية ، الا انها كانت في الغالب عينية ، وخاصة من الطعام . وقد كان من المألوف ان يكون لكل اسرة ميسورة الحال في فاس فقراء يطرقون بابها في اوقات معينة لا ليستجدوا بل ليحصلوا على حقهم من الهدايا التي كان على المحظوظين ان يقدموها باعتبارها فرضاً لا مِنّة . ومع ان هذا الامر لم يكن السبب الوحيد لانعدام الاضطراب الاجتماعي في

المدينة ، فـــلا شك في انه كان واحداً من هذه الاسباب : فاولئك المساكين لم يكونوا يشعرون بانهم معزولون او انهم ممن لفظتهم الارض ، على نحو ما جاء في اناشيد الثورات فيما بعد. وكان هؤلاء يشعرون بان الاثرياء لم يعطوهم بعض ما افاء الله به عليهم فحسب ، بل انهم كانوا يعطونهم حقاً من حقوقهم ، كائنة ما كانت من القلة . ويبدو انهم كانوا قانعين بهذا ، اذ ليس ثمة اية اشارة تسمح لنا بالقول بان مدينة فاس عرفت اضطراباً اجتماعياً في القرن الثامن / الرابع عشر .

وما لم تبلغ الاحوال من السوء درجة كبيرة ، كأن تقوم حروب تحول دون تنقل القوافل ، فان الحج كان يتم سنوياً . وقد كان هناك افراد من الاغنياء المغامرون الذين كانوا يذهبون الى الحج منفردين ولم يكونوا يبالون بمواجهة اخطار السفر بحراً . كان بعض الحجاج يبحر من سبتة او باديس او من احد الموانىء التي كانت تؤمن العمل لتلمسان . وكانوا في الغالب يقلعون في باخرة مسيحية امـــا بندقية او جنوية او بروفنسالية او اراغونية ، لان السفن المصرية والشامية ندر ان كانت تقصد هذه الموانىء ، والسفن المغربية كانت قليلة . وكان ثمة فئة اخرى من الحجاج ، وهم الفقراء ، الذين كانوا يذهبون الى الحج مشياً، وقد يحتاجون الى سنوات لأداء الفريضة والعودة الى بلادهم ، وقد كان بينهم من لم يعودوا اصلاً . الى ذلك كانت فئات من الحجاج تذهب في قوافل خاصة . الا ان العدد

الاكبر كان ينضم الى القافلة الرسمية التي كانت تنظم سنوياً ، ما لم تحل دون ذلك عقبات لا يمكن التغلب عليها . وقد كانت هذه القافلة تبلغ الغاية في كونها رسمية لانها غالباً ما كان فيها واحد او اكثر من اعضاء الاسرة المالكة ، وتضم احياناً بعض نساء الاسرة . وكانت الاستعدادات تبدأ قبل موعد الرحيل بأشهر طويلة . وكان يوم الرحيل عادة يوم حبور في المدينة . فالقوم كانوا يقدمون لتوديع الركب السعيد ، وما اكثر من كانوا يرافقون الحاج مرحلة او اكثر من الطريق المتجهة شرقاً . وقد كان للقافلة الرسمية ان تختار واحدة من عدد من الطرق ، اذ كان الامر يتوقف على المناخ السياسي : فاما ان تسير على مقربة من الساحل بطريق تازا ووجدة وتلمسان وقسنطينة وتونس ، او ان تجاري القافلة مهابط الاطلس الكبير بطريق تفيلالت وفيقوق ولاغواط وبسكرة وتوزر وقابس . وغالباً ما كان هؤلاء الحجاج يعودون افراداً ، اذ ان بعضهم كان يزور القدس قبـــل العودة الى فاس . وسواء أكانت عودة الحجاج افرادية ام جماعية ، فقد كان الاحتفال بالعائدين يمتاز بالاكرام : فقد كان الاهل يذهبون الى ملاقاة الحجاج ، الذين تكون انباء وصولهم قد سبقتهم بايام ، واصطحابهم الى مداخل المنازل . وكان الحجاج يصرفون الايام التي تلي وصولهم في استضافة الاقارب والاصدقاء الذين كانوا قد جاءوا مباركين وآملين في ان ينالهم شيء من البركة التي يحملها الحاج من بيت الله . من الطبيعي ان لا يكون ثمة احصاء لعدد الحجاج في القرن

الثامن / الرابع عشر ، الا انه مع ذلك يمكن الفرض بان عدد الحجاج لم يكن كبيراً . فاخطار الطريق وطول السفر وكثرة النفقات كانت سبباً في ان تقتصر مجابهة هذه المحنة الواقعية على عدد صغير من الاثرياء الشجعان . ومع ذلك فعندنا ما يؤكد ان بعض وجهاء فاس ادوا فريضة الحج على الاقل مرتين في حياتهم . وقد ذكرنا ان عدد الحجاج كان كافياً لاحداث تيار لا يستهان به من الاتجار بين فاس واقطار المشرق الاسلامي . وهذا يدل على انه كان نظاماً مزدهراً وانه يضع بين ايدينا وسيلة لسبر غور الورع بين اهل فاس .

وكان يحتفل بعدد من الاعياد الدينية التي كان يسهم فيها السكان اجمعين . فكان هناك اولاً عيد الفطر والذي يسمى ايضاً العيد الصغير ويقع في اليوم الاول من شوال الذي كان يتنقل مع تنقل التقويم القمري . فاذا وقع العيد والطقس جيد اقيمت الصلاة في العراء ، اذ لم يكن قط في فاس جامع يتسع وحده للذكور من سكان المدينة وممثلي القبائل المقيمة حولها . وكانت الاحتفالات تقام في مكان كرسه التقليد لذلك يقع في شمال غرب المدينة على مقربة من باب المحروق ، وكان الجدار الابيض الصغير يعين وجهة القبلة كما كانت الارض الفسيحة تكسى بالحصر التي تقدمها ادارة الاوقاف . وكان الناس يتجمعون منذ الصباح الباكر وقد تزيوا باجمل الثياب ، وكان الفرسان يمتطون جيادهم المطهمة المزخرفة . وكان السلطان او نائبه ، ان كان

هو نفسه بعيداً عن فاس ، يقبل على المكان في موكب حافل يحف حوله الجنود المسلحون والاعيان مرتدين البيض من الثياب. كان يؤم الناس في الصلاة ويحضر خطبة العيد التي كان يلقيها الواعظ السلطاني . فاذا انتهت الصلاة مر السلطان امام فرسان القبائل ، الذين كانوا يتجمعون حول اعلامهم ، متقبلاً منهم ولاءهم جماعة بعد جماعة . وفي الوقت ذاته تكون نساء فاس قد شغلن انفسهن في اعداد وجبة الغداء ، وهي الاولى من نوعها بعد انقطاع دام شهراً. فاليوم كان يصرف في احتفالات واستقبالات ومثله يقال عن الايام التالية . وفي واقع الحال فان التقليد كان يقضي بان يستمر العيد سبعة ايام ، الا ان اغلبية السكان كانوا يرجعون الى اعمالهم في نهاية اليوم الثاني او الثالث ، ويعودون الى تعطيل الاعمال في اليوم السابع .

وكان العيد الثاني هو عيد الاضحى او العيد الكبير الذي يقع في العاشر من ذي الحجة ، اي بعد سبعين يوماً من عيد الفطر . والمستحب ان يحتفل المسلم بهذا العيد في مكة المكرمة أداء لفريضة الحج ، ولكن ذلك لا يتيسر لكل مسلم ولا في كل موسم ، لذلك فقط كان يكفي ان يضحي المسلم حيث يقيم . وكان اهل الريف القريب من فاس يحملون اغنامهم الى سوق الخميس استعداداً لعيد الاضحى حتى قبل موعده باسابيع ، وفي الاسبوع السابق للعيد نفسه كانت الاغنام تباع يومياً لهذه الغاية. وجميع القادرين على شراء الاغنام اللازمة كانوا يعتبرون

الحصول على خروف جميل وتسمينه في البيت حتى يكون في مستوى التضحية مدعاة للفخر . وكان الفقراء يكتفون بجدي ، كما ان الجيران قد يشتركون في شراء ضحية واحدة مراعاة لاحوالهم المادية . وكان يوم العيد يفتتح بصلاة عامة في الخلاء ، على نحو ما كان يتم في عيد الفطر ، الا ان الامر كان يختلف في امر واحـــد . ذلك ان السلطان نفسه ، بعد الفراغ من أداء الصلاة، كان يذبح خروفاً مسمناً، ثم يعطيه لفريق من الركبان ليحملوه الى دار القاضي . فاذا وصل وفيه بعد رمق من الحياة اعتبر ذلك فألاً حسناً للسنة كلها . فاذا انتهى القوم من هـــذا الاحتفال هرع كل الى بيته ليقوم بذبح الضحية هناك . وكانت اطيب قطع تهدى الى اولئك الذين يربطهم بالمُهدي ود او احترام . وكان هذا العيد ، شأنه شأن عيد الفطر ، مناسبة لتعطيل الاعمال وتبادل الزيارات والاستقبالات الكثيرة .

وكان العيد الثالث هو عاشوراء ، وهو عيد تمته التقاليد ولم تنص عليه الشريعة . والناحية الدينية منه هي شيعية اصلاً ، اذ انه كان إحياء لذكرى استشهاد الحسين . الا ان التقليد الشعبي في فاس اضاف الى ذلك إحياء ذكرى وفاة فاطمة ، وحتى وفاة الرسول الكريم نفسه ، ولو ان النبي اسلم الروح في ١٣ ربيع الاول سنة ١١ (وفق ٨ حزيران – يونيو – ٦٣٢) . واذن فيوم عاشوراء ، بـــل الشهر نفسه ، كان وقتاً مخصصاً للحزن. فقد كان الموسيقيون المحترفون يمتنعون عن العمل في شهر

محرم ، الا ان الاولاد كانوا يتلقون فيه الهدايا الكثيرة مما يدخل السرور الى نفوسهم . والتفسير الشعبي الذي كان شائعاً في فاس لهذا التناقض له روايتان : اولاهما انه لما بلغت روح الرسول التراقي اخذ صغار البيت بالنحيب ، فاعطوا اشياء يتلهون بها ، والثانية هو ان هـــذا حدث بالنسبة الى اولاد الحسين ، الذين اعطوا لعباً يتلهون بها عن انباء وفاة والدهم . وبقطع النظر عن الاسباب فان اطفال فاس لم يعرفوا الحزن في يوم عاشوراء . وقد كانت الليلة السابقة ليوم عاشوراء ليلةً توقد فيها الشموع في قاعات الدرس في المدارس القرآنية ، وقبل ان يعود الاولاد الى بيوتهم مع الفجر كان معلموهم يلقنونهم درساً قصيراً املاً في ان تكون السنة خيراً على الناس . ومثل ذلك كان يفعل الصناع والتجار ، اذ يعمل الاولون في المصانع ويفتح الآخرون حوانيتهم فترة قصيرة جداً اثناء الصباح املاً في ان تكون السنة سنة ازدهار . وفي البيوت كانت الابواب والنوافذ والخزائن والصناديق تفتح جميعها لتسهل على البركة ان تصل الى كل مكان مهما صغر دون ان يقف في سبيلها عائق . واخيراً فقد كان الرجال في ذلك اليوم يحلقون رؤوسهم ويقلمون اظافرهم ويرتدون الثياب الجديدة . ويبدو واضحاً ان الكثير من هذه الطقوس لا تمت الى الاسلام بصلة ، ولكنها كانت شيئاً ورثه القوم من عادات قديمة الجذور هناك . وقد كان بين هذه الطقوس فيما بعد الضرب على الدف ، فهل كان هذا معروفاً في ايام بني مرين ؟ ليس ثمة ما يمكننا من اثبات ذلك او نفيه . انه من البين ان

الاحتفال بعاشوراء كان يجري في فاس بكثير من الحماسة ، الا ان مدة الاحتفال كانت اقصر من المدة اللازمة للاحتفالات السابقة .

وكان العيد الرابع هو المولد النبوي ، الذي يقع في ربيع الاول من كل عام ، والذي جعله السلطان ابو يعقوب عيداً رسمياً في عام ٦٩١ / ١٢٩٢ . وكان الاحتفال به يبدأ بصلاة ليلية ، في الليلة السابقة ليوم المولد ، تتلى فيها مدائح للرسول ، إما شعراً وإما نثراً . وقد رأينا من قبل ان السلطان المريني كان ينظم كل عــــام منافسة شعرية فيها مديح لرسول الله . ومن الناحية النظرية كانت الاحتفالات والاستقبالات تمتد سبعة ايام، الا ان اهم هذه كانت تتم في اليوم الاول والسابع .

مع ان هذه الاعياد كانت تلقي ظلالها على غيرها ، فانه كان ثمة اعياد اخرى يحتفل بها في فاس : ايام الاولياء الكبار ، التي كانت ذات صبغة دينية واجتماعية في الوقت ذاته ، على غرار الاعياد الكبرى . وبالاضافة الى ذلــــك فقد كان الناس يحتفلون بامور اخرى مثل صلاة الاستسقاء . وهذه المناسبة كانت تقتضي اقامة صلاة معينة يشترك فيها الرجال كلهم، وذلك عندما تصاب البلاد بالجفاف ويحدق الخطر بالمحاصيل ، ومن المحتمل ان هذه الصلاة المشروعة كانت في القرن الثامن / الرابع عشر ، على نحو ما هي عليه اليوم ، مصحوبة ، على الاقل بين طبقات الشعب الجاهلة ، بطقوس فيها شيء من السحر . ولعله

من المحتمل ايضاً ان بعض الاعياد التي تعود في صفاتها الى عصور ما قبل الاسلام كانت قــد تسربت الى الاحتفالات الدينية ودخلت في تضاعيفها . ومن هنا نجد ان الاحتفالات بالحاقوزة ، كانت موضع اهتمام اهل الريف، وكان يحتفل بها في اليوم الاول من شهر كانون الثاني (يناير) على التقويم اليولياني ، ويستمر اربعة ايام ينفق فيها القادرون الكثير على الطعام الجيد — وكانت المعجنات مما يعنى به بكثرة في هذه المناسبة . وكان الاحتفال بعيد العنصرة يقع في اول تموز (يوليو) : فيه كان الناس يتنافسون طيلة يوم كامل في التراشق بالماء في الشوارع والرفارف ، اذ ان النساء كن يقمن بدور بارز في هذه الحفلة .

هذه الانحرافات او على الاصح هذه الاشياء التي بقيت من عهود قديمة سابقة للاسلام لا تتعارض مع القول بان مدينة فاس ، اذا نظرنا اليها من جميع النواحي ، كانت مدينة تقوى وورع ، ولا غبار على اتباعها السنة الصحيحة . وكانت قد قبلت ، منذ مدة طويلة (منذ ايام المرابطين ، او حتى لعله قبل ايامهم) كما قبل بذلك المغرب العربي كله ، بالمذهب المالكي ، نسبة الى فقيه من اهل المدينة عاش في اواخر القرن الثاني / الثامن . والمذهب المالكي دقيق واساسي وقــد طبع الحياة الاسلامية في فاس بطابعه . ولعلّ المصادفة او المجازفة التي تعرض لها الشمال الافريقي عبر التاريخ هي التي مكنت لهذا المذهب هناك ، الا اننا نلمس ايضاً شيئاً من تقشف البربر الذي ظهر عبر التاريخ في

تلك الربوع جميعها ، والذي كان يتفق مع القواعد المالكية الدقيقة المضبوطة . على انه قد اشرنا من قبل اكثر من مرة الى انه في فاس وفي غيرها قد تفرض عادة ما نفسها على الشريعة ، على النحو الذي يوضحها فيه علماء المالكية . فهذه العادة لا تتعارض مع احكام الشرع بل انها تجعلها اكثر دقة وضبطاً بالنسبة لقضايا تفصيلية معينة لم يعرض لها المذهب المالكي ، وبذلك ترك للاهالي مجالاً للاختيار والاجتهاد . ومن ثم فلم يكن العلماء في فاس يشعرون بانهم يعتدون على حرمة الشريعة عندما يضمون العادة الى جانب الشريعة . ومتى ابدى العلماء هذا الرأي لم يكن لأحد ان يعارضهم ، فهم اهل العلم الكبار في الشؤون الدينية ، وهم المحكمون بين الناس ان جاءهم هؤلاء في امر مهم او في استشارة . وكان قرارهم يقبل كما هو دون تساؤل اذ انهم لم يكونوا يعتبرون علماء فحسب ، بل انهم كانوا سدنة الحقيقة . فكان اليهم تنظيم الحياة الدينية في فاس ، وكانوا يدركون ذلك تماماً . وكان يخامرهم شعور باهميتهم ومعرفتهم وايضاً بمسؤولياتهم . وقد كان السلطان نفسه يستشيرهم عندما تعرض قضية تتعلق بالسنن الصحيح ، وكان يقبل قرارهم راضياً . واذ كانوا يدركون اهمية دورهم فقد كانوا يعرفون ايضاً حدوده ولم يشاركوا في شؤون السياسة. انه من الغريب القول بان سدنة الحقيقة الدينية في هذا المجتمع الاسلامي، الذي كانت فيه الامور الروحية والزمنية مبدئياً متشابكة مترابطة الى اقصى حد، لم يدخلوا ميدان السياسة ، بل كانوا ، في واقع الامر ،

يمارسون فصل السلطات ، مع انه لم يكن ثمة قانون يطالبهم بذلك ، اكثر من مطالبة معاصريهم من اساقفة اوروبة المسيحية .

وعلى كل فان ممثلي المذهب المالكي الرسميين لم يكونوا وحدهم القيمين على الشؤون الروحية بفاس . فقد كان عليهم ان يذكروا ، الى درجة معينة ، المتصوفة والاولياء ، الاحياء منهم والموتى ، الذين كان تأثيرهم على العقل اقل ، ولكن سيطرتهم على عواطف الشعب كانت قوية . ذلك بأن هذه التقوى القائمة على التفسير الشرعي كان فيها شيء من الجفاف : فقد كانت تتقيد بالاحكام كثيراً ، ولم تتمكن من تحقيق رغبات الناس العاطفية القائمة على التوصل الشخصي لله ، الامر الذي كانت القلوب تتوق اليه دوماً . فكان المتصوفة يلبون هذه الرغبات . وليس من شك في انه كان بينهم كثيرون من المشعوذين والشذاذ ، ولكن مما لا ريب فيه ايضاً هو انه كان في عدادهم المؤمنون المخلصون الذين لم يكفهم الخوف من الله والشعور بقوته الشاملة لكل شيء ، بل عاشوا تجربة حب الله ، وقدموا قلوبهم له تقدمة مخلصة . ومع ذلك فان التصوف في فاس ، على قدر ما يمكننا ان نحكم عليه ، ظل ضمن حدود معقولة ، بحيث لم يكن منه خطر على السنة هناك .

ان مظاهر التقوى الجماعية التي ذكرناها من قبل تقيم الدليل على ان التقرب الى الله كان يجري بصورة جماعية . الا اننا اذا

تركنا هذه الاحتفالات التي كانت تشغل مكاناً كبيراً في حياة السكان في فاس، فاننا نجد انه من الضروري ان توجه اهتمامنا الى اعمال التقوى الفردية ، وهي اعمال يمكن ان توضح لنا الجـــو الروحي الذي كانت تعيشه الجماعة هناك ، افضل من اي شيء آخر . ذلك بأن هذه الاعمال لا تقبل الآلية والتقليد الذي لا روح فيه ، الامر الذي يجده المرء في الاعمال الجماعية كلها . لا يستطيـع اي امرىء يعيش في فاس دون ان يحس بجو التقوى الذي يملأ الفضاء هناك : ففكرة الله موجودة في كل مكان ، في اصغر مظهر من مظاهر الحياة، من العبارات التي تستعمل للتحية، الى ما في القرآن الكريم من آيات او الحديث الشريف من مأثور القول . انظر الى هذا التاجر ينتظر زبائنه . انه يعد حبات سبحته ويعيد على مسامع نفسه ادعية او يقرأ في كتاب يهذب النفس . وفي كل ساعة من ساعات النهار كان المؤمنون ، الرفعاء منهم والوضعاء ، يُرون داخلين اماكن العبادة مسلمين انفسهم ، ولو لوقت قصير ، الى الله تعالى . والقول بان المواءمة الصافية قد تقوم هنا وهناك ، وان اهل فاس لم يكونوا يختلفون عن البشر العاديين ، ليس من شأنه ان يثير استغراب اي من الناس . الا ان هذا ما كان ليغير الانطباع القائم بوجود تقوى عامة عميقة تنبع من فاس . انها تقوى ثابتة وبسيطة دون حركات مبالغ فيها او ابتهالات مضخمة ، بل نزوع يسير – يكاد يكون طبيعيـــاً – للاتصال بالعالم الخارق . ونرى في كتب التراجم عبارات على الشكل التالي : « وما اكثر ما كان يترك بيته في

منتصف الليل الى الحمام للتوضؤ ، ثم يذهب للقيام بفروض العبادة ، ثم يعود الى بيته » .

يضاف الى هذا كله ان مدينة فاس لم يبد عليها منذ انشائها الى ايام بني مرين ، ولم يبد عليها حتى الى اليوم ، آثار بدعة او تنكب عن سوي العقيدة مما قد ينتهي الى ثورة من اي نوع . فقد تطورت الحياة الدينية في هذه المدينة في اطار من الرصانة ، على خلاف ما عرف في مناطق اخرى من العالم الاسلامي من شك وقلق . وتفسير هذا ولا شك يعود الى حقيقة اساسية وهي ان اهـــل فاس ، بالنسبة الى المجال الديني وغيره ، لم يتخلوا عن اعتدالهم الطبيعي . ليس بينهم صوفي عظيم كالحلاج ، او مصلح ديني مثل ابن تومرت الذي حاول ان يفرض عقيدة مطلقة على شعب بأكمله . ان تقواهم هي تقوى نشيطة مليئة بالحياة ، يشترك فيها الجميع ، لا تستعصي على التوق الصوفي ، الا انها قبل كل شيء « انسانية وديعة » ، تتميز باستمرارها واتساقها اكثر منها بتقلباتها وتفجراتها ، وتنظر بتسامح لا الى اتباع الاديان الاخرى فحسب (يجب ان يذكر ان التقاليد تقـــول بأن موسى بن ميمون ، الفيلسوف اليهودي ، علم في جامـــع القرويين) ، بل الى النزعات المختلفة التي تسربت الى الاسلام في المغرب بكامله . لقد كانت تنظر بعين العطف مساوية بـــين المتصوفة واصحاب الرؤى واتباع المذهب المالكي والذين يقبلون على الاولياء بشيء من الحماسة وبعض افراد الجمهور الذين كانوا

يتمسكون ، بسبب جهلهم ، بعقائد قديمة يكاد يسهل تمييزها حتى من خلال ستار الاسلام الذي اكتنفها . والامر الهام في نظر الاغلبية هو انه في كل يوم ، بل في كل ساعة تقريباً كانت آلاف من النفوس تؤكد اعتقادها بالله الاحد الصمد ، وانه في كل يوم بل في كل سنة ، كانت ترتفع من اماكن العبادة الكثيرة في فاس ، سمفونية تسبيح لله تعالى بحيث كان كل يقوم بدوره بالايمان ذاته ، على ما اعطي من قدرة .

الخاتمة

حافظت فاس على مكانتها كعاصمة لبني مرين وعلى ما كان لها من بهاء واتزان لمدة قرنين ، الا انه في اواسط القرن العاشر / السادس عشر سيطر السعديون على المغرب ، وبما انهم من اهل الجنوب فانهم اتخذوا مراكش عاصمة لدولتهم . وظلت فاس ، على كل ، المدينة الثانية ، فكان سلاطين السعديين يقصدونها للاقامة فيها طويلا ، ويمنون بزخرفتها ، ويختارون واحداً من اقارب السلطان الادنين ليتولى امورها. على ان الفوضى التي عمت البلاد في اوائل القرن الحادي عشر / السابع عشر تركت آثارها في فاس التي أصابتها الآلام القاسية : فحياتها الاقتصادية اخذت تتقهقر ، والمدينة اصبحت تتقسمها الاهواء والحروب الاهلية ، فتناقص عدد سكانها ، واستمرت هذه الحال فترة تقرب من الخمسين سنة . فلما تولى اول ملوك الدولة العلوية مولاي الرشيد شؤون المغرب واستولى على فاس سنة ١٠٧٧/١٦٦٦ ، اراد ان يعيد اليها نشاطها الاقتصادي فأحيا الآمال في قلوب اهلها، لكن ذلك لم يطل . ذلك بأن مولاي اسماعيل ، الذي خلف اخاه سنة ١٠٨٣ / ١٦٧٢ لم يكن يضمر لمدينة ادريس سوى النفور

منها ، فعمد الى اقامة عاصمته في مكناس ، ولعله اهمل سكان فاس . وجاءت فيا بعد فترة فوضى شملت العقود الوسطى من القرن الثاني عشر / الثامن عشر ، كانت فاس تتعرض اثناءها للخطر الجاثم على مقربة منها ممثلاً في قبائل البربر او في الجنود الذين يؤيدون المطالبين بالعرش واحداً بعد الآخر . ولم يتح للمدينة ان تستنشق عبير الحرية حتى سنة ١١٧٤ / ١٧٦٠ لما تمكن سيدي محمد من نشر الامن في ربوع ملكه . الا ان ما تمكنت فاس من استحيائه لم يتجاوز الا الجزء القليل من اتزانها السابق ، لانها عادت عاصمة لبلد تخلف في تطوره واعتزل العالم بعض الشيء .

وما هو وضع فاس اليوم ؟ ان تجار فاس انتقلوا الى عدد من المراكز الاقتصادية المهمة في المغرب . كما ان اهل فاس اسهموا في اعمال الحكومة اسهاماً كبيراً اما عن طريق الوزارات او الزعامات الحزبية ، او عن طريق الموظفين الذين كونتهم التقاليد الثقافية في مدينة ادريس . الا انه مع هذه المشاركة التي تقوم بها فاس في الحياة المغربية الحديثة فانها لا تعدو ان تكون مدينة اقليمية . فالعاصمة هي الرباط ، والدار البيضاء هي المركز التجاري الكبير . وفي الرباط يقوم المركز الفكري الحديث في المغرب وهو جامعة محمد الخامس . ويبدو من هذا كأن مستقبل فاس محدود ، وكأن المدينة لم يبق لها الا ماضيها وجامعتها الاسلامية القديمة . لكن ثمة عدد من الكليات على وشك ان

تستكمل نموها في فاس ، وهذا سيتيح لها الاسهام في العمل الفكري الحديث ايضاً . لقد ازداد عدد سكان فاس ، كما ازداد عدد السكان في بقية المدن المغربية ، الا ان الزيادة هناك اصغر نسبياً منها في الدار البيضاء والرباط وحتى مراكش . وليست فاس الآن ، من الناحية الاقتصادية ، سوى مدينة ثانوية ، جمة الحركة والنشاط ، ولا شك ، لانها محاطة بمنطقة مزدهرة نسبياً ، وستكون مركز صناعات معينة مثل الجلود والاصواف ، ولكنها ستظل تعتمد على الدار البيضاء . وفاس معزولة عن المشاريع التمدينية التي تعتمد عليهـــا ثروة المغرب الحديثة . ولذلك فانه من الجائز القول ، ان لم يحدث شيء يقلب الامور رأساً على عقب ، بأن عصر النضج التام الحقيقي لفاس كان في القرن الثامن / الرابع عشر .

وقد اتضح انه حتى في تلك الفترة كان الزخم والتألق اللذين عرفتها المدينة محدودين بعض الشيء . وقد اتيح لفاس يوماً ان تقوم بدور عاصمة اسلامية كبرى في عالم كان آخذاً بالتقلص . الا اننا نرى ايضاً ان اثرها في الحياة الفكرية لم يكن يتخطى حـــدود المغرب ، وان علاقاتها الاقتصادية لم تتجاوز ذلك الا قليلاً . انها لم تمر بتجربة النمو السريع والتطور الاخاذ الذي عرفته مدن اخرى مثل القاهرة وبغداد ، ولنكتف بالتمثيل بمدن اسلامية . لقد كانت فاس تتأذى من عزلتها في وقت لم يكن البشر قد عرفوا المحيط الاطلسي مجالاً لنشاطهم ، وكانت

تتأذى من الاحوال التاريخية التي كانت تحول دونها ودون اقامة علاقات مع شبه جزيرة ايبيرية ومع غرب اوروبة ، وهي علاقات كان من المحتمل ان تكون لها فائدة كبيرة .

على ان مدينة فاس تستحق كل الشهرة التي عزيت اليها لانها تمكنت من رعاية حضارة اصيلة ازدهرت داخل اسوارها : فقد اسلفت لنفسها فناً في الحياة حافظت عليه واخلصت له الى الآن، والعنصر الاساسي فيه هو الاستقرار . ففاس مدينة معقولة اعتاد اهلها ان ينظروا الى الحقائق نظرة صحيحة ، وان يستخلصوا منها ما يمكن ان تسلم به ، دون محاولة المستحيل ؛ ومدينة مستقرة حيث تعني التجارة والنقود الشيء الكثير ، الا انهما ليسا كل شيء ؛ وحيث يشعر الصانع ، بل العامل اجمالاً ، انه محترم وانه لا يشعر بضعة بسبب موضعه البسيط في الحياة ؛ وحيث تتعادل حياة العقل مع الرغبة في الربح ؛ وحيث الشعور الديني قوي وعميق لكنه لم يصل الى درجة بحيث يصبح تعصباً وخصومة قبيحة ؛ وحيث لم يحطم البلاط المدينة بسبب اهميته وجلالته . ليست فاس ، كما يقال كثيراً ، مدينة الاسرار ، بل مدينة الحس الصحيح والحياة الجيدة . ولعلّ هذه هي ميزتها الرئيسية ، وهي صفة ، والحق يقال ، عظيمة ، وعظيمة بحق .

مراجع مختارة

(بالعربية)

ابن ابي زرع الفاسي : كتاب الانيس

المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس .

حققه تورنبرغ (ابسالا ، ١٨٤٣) .

(كتب هذا المؤلف في الثلث الاول من القرن الثامن / الرابع عشر) .

ابو الحسن علي الجزنائي : زهرة الآس

حققه الفرد بل (الجزائر ، ١٩٢٣) .

(وضع في النصف الاول من القرن الثامن / الرابع عشر) .

ابن القاضي : جذوة الاقتباس في من حل من الاعلام بمدينة فاس .

مطبوع على الحجر (فاس ، ١٣٠٩ هـ) .

(وضع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر/ الثامن عشر) .

محمد بن جعفر الكتاني : الازهار العطرات الانفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاريخ مدينة فاس.

مطبوع على الحجر (فاس ، ١٣١٤ هـ) .

ـــــــ : سلوة الانفاس ومحادثات الاكياس بمن قبر من العلما والصلحا بفاس .

٣ اجزاء .

مطبوع على الحجر (فاس ، ١٣١٦ هـ) .

(بالافرنجيـــة)

Aubin, Eugène. « Le Maroc d'aujourd'hui ». Paris, 1904.

Gaillard, Henri. « Une ville d'Islam : Fez». Paris, 1905.

Tharaud, Jean et Jérôme. « Fez ou les Bourgeois de l'Islam ». Paris, 1930.

Le Tourneau, Roger. «Fès avant le Protectorat». Casablanca; 1949.

الفهرست

أ

ب

ت

ح

خ

ر

ز

س

ق

ل

م

فهرست المحتويات

الخارطتان

ف. ب. (١٧٥)

١٩٦٧

« **فاس في عصر بني مرين** » هو الكتاب الرابع من هذه السلسلة الفريدة . يتحدث الكتاب عن مدينة فاس التي شهدت نمواً نظيفاً عميقاً وصل الى أوجه في القرن الثامن / الرابع عشر ، أيام دولة بني مرين . على ان هذه المدينة لم تكن عاصمة مملكة المرينيين المستقرة فحسب ، بل ان العناصر البشرية فيها عملت ، حتى بعد انقضاء دولة بني مرين ، على جعلها مركزاً مهماً للتجارة ، ومنبعاً ثراً لرجال يرفعون راية العلم والدين ، ويبقون للحياة العامة فيها وجهاً حضارياً قوياً ، وآخر روحياً مستقلاً . وبعد ، فان الكاتب ، اذ يحدثنا عن هذه المدينة ، يعتمد على ما جاء عنها في المصادر العربية ، وفي المؤلفات الاوروبية ، حتى القرن السادس عشر ، ويفصل لنا النواحي الادارية والاقتصادية والدينية فيها ، ويقوّم لنا أهميتها في المغرب ، وفي شمال افريقية ، وفي العالم الاسلامي كله ، في عصر دولة بني مرين .

الكتب التي صدرت من هذه السلسلة :

تأليف وترجمة الدكتور نقولا زياده

تأليف : تشارلز ألكسندر روبنصن
ترجمة : الدكتور أنيس فريحة

تأليف : آرثر آربري
ترجمة : الدكتور سامي مكارم

تأليف : البرانت رايفنشتال
ترجمة : ابراهيم رزق

●